إبراهيم المكرمي

رواية

شُرفَة عَلى العَدَم

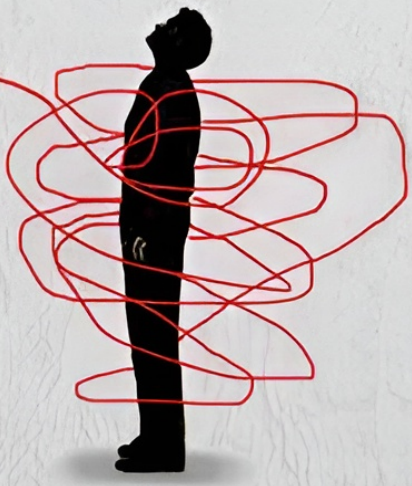

مكتبة نوميديا 233

Telegram @Numidia_Library

أثر

شرفة على العدم

شرفة على العدم / رواية

إبراهيم المكرمي

الطبعة الأولى 1443 / 2021
ردمك: 978-603-91647-8-4
رقم الإيداع: 56 / 1443

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزءٍ من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

شرفة على العدم

إبراهيم المكرمي

ألا حبــذا هنــد وأرض بهــا هنــدُ

وهنـد أتى من دونها النأي والبعدُ

الحطيئة

1

رمى رجلُ الشرطةِ بطريقةٍ مستفزةٍ القيدَ أمام قدميّ بعد أن أمَرني بخلع حذائي، وفي نظرةٍ دونيةٍ منه كانت خليطاً من الازدراء والواجب والشفقةَ – والأخيرة أكثر وقعاً في نفسي – كان واضحاً بأنّ المكلفين بهذا الأعمال جرى اختيارهم بعناية حيثُ يبدو عليهم أنهم تمرّنوا على مقابلة السجين والتعامل معه كأسيرِ حرب.

قال لي بصوته الجهوري وشخصيةٍ متعالية ولكنةٍ لا تدعو إلى الثقة ولا الأريحية: خُذْ، قيّد قدميك. وابتعد عني مسافة مترٍ وكأنني سألهيه ثم ألوذ بالفرار، فبدا مستعداً للانقضاض عليّ في أيّ لحظة. عندها أيقنت أنه لا يرى جيداً، فأنا لم أعرف الهرب إلا من واقعي ومن أفكاري ومن صراعاتي النفسية ومع ذلك لم أستطع الهروب منها، ولكن يبدو أنها بروتوكولات اعتادوا عليها فهم لا يهتمون بقضيتك بقدر اهتمامهم بتفعيل إجراءات الأمان التي ظلت تتطور مع تطور البشرية. أمسكت القيدَ الثقيلَ بكلتا يديّ ورحت أتمعن هذه القطعة التي يخطف لمعانها بريق العين. أحكمت الوثاق على قدمي اليمنى ومن ثم اليسرى، ثم وقفت أنتظر قراره هل أتحرك أم أبقى في مكاني.

– مُدّ يديك.

قال لي. ثم جلب قيداً آخر وضغط به على معصمي بكلّ قوة، وظلّ يهز القيدَ ليتأكد أنه أخذَ موقعهُ وأنّ يديّ لن تستطيعا النجاةَ من القيدِ حتى لو كنت ساحراً أو لاعبَ خفة. أمرني بالانتظار، ابتعد مسافةً أربعةَ أمتارٍ التفت

فيها إلي ليتأكد من أنني أطيع أوامره، ثم مضى يكمل بقية إجراءات نقلي إلى السجن.

نظرت إلى القيدِ في يدي وأطرافِه الحادّة، لم يكن الألم الذي سيخلفه القيد وهو يحتك بالعظمة الخلفية يعني لي الكثير بقدر شعوري بالذلّ والعار اللذين شعرت بهما تلك اللحظة مع هذا القيد والسير في الشوارع أمام أعين الناس كان أكبر إهانة يتعرض لها أي إنسان، حينها سألت نفسي هل أستحق هذا القيد؟ أو بمعنى أكثر وضوحاً هل ما فعلته يستوجب تقييد معصمي وقدمي؟ لم تعنِ لي الحرية كثيراً بقدر ما كنت أنظر إلى العدالة الكونية. كانت لمعة القيد تعكس صورة وجهي، تلك الصورة التي لم تتغير منذ أن عرفت نفسي. في حياتي كنت أهتم بالنظر إلى وجهي في أعين الناس. وفي الحقيقة، لم تكن تعجبني نظرتي إلى نفسي ولا نظرة الناس إلي، ويبدو أن حالة اللا رضا من الأشياء التي رافقتني للدرجة التي بات لها يد في قدومي إلى هنا، لم أكن شديد الحرص، وإن كنت أرى أن الظروف هي من تصنع ملامحك العقلية فكيف الجسمية، فوجهي ممتلئ وهادئ وقسماته سلسلة يسهل التعرف على ما يحمل صاحبها من نوايا. هذه القوالب من الوجوه يصعب استبدالها بوجوه اصطناعية أخرى، بالإضافة إلى أنني لم أكن ذو شخصية نرجسية، ومظهري وإن كان يبعث شعوراً بالإيجابية لدى الأشخاص فقد كان آخر اهتماماتي. فإن كنت تعرفني منذ فترة زمنية طويلة أو قصيرة فإنك لن ترى فرقاً كبيراً، سوى أنني أجيد الابتسامة حتى في أكثر اللحظات خيبةً، حتى عندما كان أبي يضربني في صغري كنت أبتسمُ لا شعورياً وهذا ما يجعله يستشيط غضباً فينسى نفسه ويضربني بعنفٍ أكثر كملاكم في الجولة الأولى من النزال، ورغم صغر سني كنت أقدر وضع أبي، فالقرية تقوم لغضبه وتقعد وأنا أبتسم في وجهه، ولكن الأمر لم يكن بيدي بل عفوي تماماً. ألا ترى أيها القدر أنني أبتسم لمجهولك وأنا مقيد اليدين لا حيلة لي ولا قوة؟

جلب الشرطي كاميرا التصوير ليلتقط لي صورة جنائية توضع في ملف سوابقي الناصع والذي يشبه إلى حد كبير صحيفة ذنوبي يدون في أعلاها أكبر تلك الذنوب على الإطلاق وهي أنني ولدت في هذه الدنيا. أمرني أن أرفع رأسي وبقيت مبتسماً بثوبي الكتاني الأبيض الذي أغلقت زرّه العلوي وعدلت وضعيته من طرفي كتفي. ألتقط صورتي، ثم أمرني بالاستدارة. لم تتغير ابتسامتي، وألتقط الصورة الثانية. سحب الذاكرة من خلفية الكاميرا ثم أدخلها في جهاز الحاسوب وحمل الصور ثم طبعها على الورقة، وقبل أن يضعها في ملفي نظرت إليها وكانت أجمل صورة التقطت لي في حياتي. ثم بحركة مفاجئة دفعني إلى الأمام حتى كدت أقع على وجهي:

– تقدم أيها الأبله.

ظلّت القيود تعيق حركتي فقدمي ثقيلة وخطواتي غير كاملة وأطراف القيود الحادة أدمت كاحلي. سرت مسافة أربعين متراً، كل متر يعادل مسيرة كادح لم يعد يشعر بالجوع والخوف. فتح لي باب ظهر السيارة التي تقلني إلى السجن وأمرني بالصعود. وما أن جلست حتى أغلق الباب بقوة، وشعرت أنني داخل قفص حيوانات السيرك. أعاد تشغيل محرك السيارة ثم انطلق بي مسرعاً في شوارع المدينة وسلك الطرق الفرعية بين البيوت والأزقة. سألته لماذا لم تذهب عبر الطريق الرئيسي؟ لكنه لم يجبني وأقفل النافذة بيني وبينه. مؤخراً عرفت السبب، فمن يعتبرونهم مجرمين خطرين لا يسلكون الطرق الرئيسية عند نقلهم بل الطرق غير المعروفة تحسباً لأي هجوم أو خديعة. عندما عرفت هذه المعلومة ضحكت فمن الذي سيتذكرني هنا أو يفكر بوضع خطةٍ لإنقاذي.

2

متجهمين بأعينهم الغائرة المليئة بالاستغراب واليقظة التي أعياها النظر إلى هذا الباب الرمادي الموصد أمام وجوههم كل دقائق اليوم وثوانيه. أنوار ساطعة تتدلى من سقف الغرفة أطرافها محمية بدعامات حديدية تمنع أي محاولة للعبث بها، تنير كل المكان ولعلها وضعت من أجل ألا تنطفئ إلى الأبد، كأن هذه الإنارة الشديدة وضعت لترصد النوم في أعين السجناء وتمنع مروره إليها، وفي أعلى الجدار الأمامي كاميرا ساكنة الحركة ذات عدسات أفقية تلتقط ما يحدث في الزنزانة على مدار الساعة، ولو أن وجودها لا يبدو ضرورياً بسبب وجود الحراس بيد أن أثرها النفسي يبدو أكثر وقعاً على السجناء، فهم يشعرون بأنها تراقب كل تحركاتهم وتلتقط أدنى ما تقوله شفاههم حتى وإن وصل الصوت إلى الهمس إذ لا يستغرب إن كانت هذه الكاميرة تلتقط وتسجل حديثك مع نفسك، وهؤلاء العسكر السجانون الذين لا يهمهم من أنت أو ما نوع المصيبة التي اقترفتها أو من أين أتى هذا الحظ العاثر الذي قادك إلى هذه الزاوية المظلمة من العالم، لا يمكن لك كسجين أن تفهمهم أو أن تتنبأ باللحظة المناسبة التي تحدثهم فيها أو أن تمارس عليهم ما تعرف أنه حقّ من حقوقك، فهم يبدلون أمزجتهم كأنما يبدلون ثيابهم العسكرية، ولعلي لا ألوم السجان الذي طالما تلى اللعنات على هذه الوظيفة المقززة أو اليوم الذي قاده إلى مقر التوظيف ذاك، فالنظر إلى هؤلاء المساجين بهيئاتهم الرثة يجلب البؤس، وتحّمل أسئلتهم الدائمة بشكل روتيني ودائم لا يجعلك في حالة جيدة، ففي النهاية هذا سجن يقضي فيه

الموقوف فترة العقوبة بسبب ما قام به وليس مكان لخدمة العملاء. الأخلاق في هذا المكان لا تعني لأحد الشيء الكثير، فنظرة السجين للسجان لن تتغير وكذلك العكس.

الأدهى من كل ذلك بأن ما من أحد يعرف شيئاً! لا السجين يعلم إلى أين تذهب كل فترات الانتظار التي قضاها هنا في هذا المكان الموحش وما يؤول إليه كل هذا البقاء، ولا السجان يعلم متى يذهب كل هؤلاء المجرمين من أمام عينه ومن فوق رأسه، فهم يراقبونه خلف الزجاجات المثبتة من على يمين وشمال الباب على الدوام و في كل حركة يقوم بها وكأنه تلفازهم الوحيد ونشرتهم الإخبارية المتجددة على رأس كل ساعة، ومتى ما هموا بسؤاله أو الإشارة بحركات اليد إليه عما يحدث في الخارج من خبر جديد يذكر أو جدير بالتطرق إليه أو يشغلهم عن التفكير في قضاياهم التي جلبتهم إلى هنا فإن السجان يسبقهم بكلمة لا أعلم، أو يلوح بحركة صامتة بأصبعه السبابة يمنة ويسرة، وهنا تأخذ عبارة لا أعلم مكانتها من لا جديد يذكر في الحياة أو ما من أخبار عاجلة تستحق أن يعرفها السجين في الخارج، فهذه الحياة لم تقرر الوقوف من أجل أحد بعد، ولا يوجد اعتقاد وارد بأن الحركة العامة لهذه المدينة المحرمة تكترث بمن هم داخل هذه المنشأة السحيقة ذات الجدران المتصدعة والتي تحمل ألواناً لا وجود لها في الطبيعة، ومن المؤكد أن المهندس الذي استعانوا به لهذا البناء لم يسبق له أن درس العمارة ولا حتى التخطيط فوق الرمل، وهذا ما يعطي الصورة التي تملئ مخيلة المارة كلما تبادر إلى أذهانهم أو مرت أعينهم على هذه المكان، الصورة الخيالية عن أناس يتم تعذيبهم بالجلد وبوابل من أقبح الألفاظ مستغلين تقييد أيديهم وأرجلهم، أو كما هو الحال في الأفلام الوثائقية فالسجين ذو الوجه القبيح المزدحم بالملامح التي تجلب الضجر لا يكف عن افتعال المشكلات وتنظيم العصابات طوال فترة سجنه. ما هذا الهراء؟ كل ما في الأمر أنك مسجون تقف هنا في مواجهة

دائمة مع نفسك في تعمد دائم من السجان بقطع الأخبار عنك والتواصل معك، فهذه هي سياسة السجن التي يريد أن ينتهجها القائمين عليها، لكي تبقى رهين نفسك وفي مواجهة مع قضيتك اللعينة التي جاءت بك إلى هنا. والتعمد هنا هو أن يبقى كل شيء غير مفهوم كنوع من التضليل وتشتيت ذهن الجاني، وإذا تكلمنا عن الوقت فيجب إدراجه في قائمة أحدث وسائل التعذيب التي يتعرض لها المرء وهو حر طليق فكيف به معزولاً عن العالم وبين هذه والوقت أزمة أخرى فعقارب الساعة بالكاد تتحرك والوقت نفسه بالكاد يمضي فلا توجد ساعة حائط تشير إلى الوقت وخيوط الليل والنهار تشتبك ببعضها إلى أن يبدو لك اليوم سحر كله أو فجر كله، وعدم رؤية السجين للوقت يجعله في حيرة وصراع لحظي دائماً بينه وبين دفع هذا الوقت إلى الأمام، وهنا ترى غريزة البقاء في أوج أشكالها وكل ذلك لمعرفة ما إن كان الوقت قد أسدل ستاره لبداية يوم جديد، ليشعر السجين بإنجاز عظيم في سبيل الخروج من جحيمه. وبرغم أن الجميع يختلفون في قضاياهم إلا أنهم يتشابهون في إصرارهم على براءتهم، فالكل هنا بريء لم تقترف أيديهم الموغلة في الإجرام أيّ ذنب يذكر، وهنا يجب أن تعلم بأن جزء من النص مفقود، فالحقيقة غائبة كلياً أو جزئياً، وهي رهينة نظرة الآخر ومن ثم نظرة المجتمع الذي لا يكف عن البطش بسمعتك حتى وأنت بين أيدي العدالة، والحق هنا أشبه برجل صوفي يضع القلنسوة على رأسه ويجوب الأماكن خافياً حقيقته إلى أن يخرج من القرية الغريبة.

ينظر المساجين إلى بعضهم بين الحين والآخر نظرات ريبة حتى إن ضحك في وجه زميله السجين فإن الشك قائم، كأنّ الآخر وضع ليكون مخبراً عليه أو جاسوساً بوجه مجرم يتلقط الأخبار ويعرف ملابسات الجريمة التي أخفاها عن المحققين والعدالة بشكل عام، فإن كنت بينهم ستشعر بالاكتئاب فأنت

بين حفنةٍ من مدعيّ البراءة الذين رمي بهم هنا بينما المجرمون الأصليون أحرار يتمتعون بيومهم أو أن الجرم لم يحدث من الأساس.

يا للخيبة فرغم تقدم البشرية في العلوم إلا أن السلوك البشري لا يزال يصيبك بالحيرة، ومهما اعتقدت أنك فهمت هذا الكائن المعقد سترى نفسك لا تعرف شيئاً عنه. ففي موقع الجريمة يبدو الفرد منهم بطلاً مغواراً لا يكترث بما سيحدث وما إن تضع السلطات يدها عليه حتى يتحول إلى كائن هزيل ضعيف البنية شلّ التفكير عقله الذي لم يستخدمه في السابق. فالإجرام وإن كان وسيلة للتعبير عن حالة الإرضاء التي يشعر بها الفرد لكنه سرعان ما يتحول إلى كابوس يجثم على صدر المجرم لمجرد أن يضع قدمه هنا، وهنا تستطيع أن ترى النفس البشرية بتواضعها وقلة حيلتها وضعفها في السجن.

ينظر السجان نظرة استطلاعية عبر النافذة الزجاجية المطلة على الزنزانة ليرى الفراغ في الغرفة وفي يده اليمنى مفتاحها الذي يلوح بها وكأنه يلف الأقدار بإصبع واحدة. يستطلع إن كان ثمة مكان يتحمل ضيفاً جديداً، وهذا قد يكون أجمل خبر للسجناء الذين جمدتهم التعاسة، فهذا الجديد يعني قصة جديدة تُسمع ويتم تحليلها وتدقيقها ولا مانع بالعبث بتفاصيلها، ومن المؤكد أنه سيجلب لهم الأخبار، فهو قادم من الحرية من حيث البقاع الخضراء ورفاهة العيش وأطيب ما تسمع وتتذوق، والنساء المترامیات في الطريق يبتسمن لكل المارة، وهذا لا يعكس شيئاً في واقع الأمر بل هي إفرازات عقولهم في السجن وما ينتج عنها من أحلام وردية. وللعودة لهذا الجديد الذي يعني أننا سنصغي إلى أشياء جديدة حدثت وتغيرت، فقد أثقل كواهلنا الصمت وجثت الهموم على صدورنا. يعد الجديد أهم شخصية لدينا كمساجين فهو الوحيد الذي بمقدوره أن يحفز أملنا و وينشط ذاكرتنا ويختبر معرفتنا بالخارج. ما أحلاها تلك المشاعر التي نسينا طعمها ورائحتها،

ولعله يغير مذاق مشاعرنا البائسة في هذا المكان التي تلبّس تجاويف أعماقنا وعقولنا، وحينها سنجد من يجيبنا على أسئلتنا التافهة القابعة تحت ألسنتنا دون طائل أو مجيب يجيب عنها.

وليست سوى لحظات من قبل الظهيرة حتى سمع صوت خطوات الأقدام التي ستكون فاتحة هذا اليوم البائس.

– قف عند الباب أيها الأبله.

صوت السجان ينادي شخصاً ما.

حدق المساجين ببعضهم في دهشةٍ من هذا المشهد الذي يحدث، إنه السجين الجديد، يجره السجان بقوة وكأن ثمة أمر شخصي بينهما، ثم يفتح السجان باب الزنزانة ويدفع العضو الجديد إلى الداخل ويغلق الباب بقوة. ويحوّل المساجين تصنّع اللامبالاة إلى دهشة وشكّ وريبة في آنٍ معاً. فلا شيء يدلّ على شيء، فلا شكل هذا الشخص يدل على أنه اقترف ذنباً ما ولا حتى خطيئة، ولا أسلوب السجان الفظّ يدلّ على أنه فعل جرماً شنيعاً. وظل العقل في تلك اللحظة يقلب خياراته، وتحركت فرائس المساجين ونظراتهم الاستطلاعية إلى وضع نظرية مبدئية عن هذا السجين.

تحرك الرجل البسيط بخط مستقيم في الغرفة بعد أن ألقى التحية على المساجين على استحياء. وأخذ يمسح بعينه كل وعورة وتشققات وجحور هذه الزنزانة التي رميت فيها الوسائد ومفارش النوم المتسخة والحمامات المجاورة ذات الرائحة النتنة. وفي حركة عفوية تدل أن هذا الشخص لم يسبق له أن دخل مركز شرطة أو حتى سجن في حياته جلس في زاوية السجن كطفلٍ فقد أبويه. أخذ كلاً منا يدعوه إلى مكان نومه الخاص كنوع من كرم الضيافة التي بوسع المساجين أن يقدموه، لكنه رفض وشكرهم جميعاً ووضع ظهره إلى الزاوية مطرقاً رأسه إلى الخلف وكأنه يريد أن يستريح من حمل أثقل

كاهله. جلس بكل هدوء يلتقط أنفاسه التي تخطفتها سرعة الأحداث هذا الصباح.

كثيراً ما بدا هذا الجديد مستغرقاً في التفكير، لا شيء يوحي بأنه غاضب أو منهار، كما أن شكله و هندامه وإن كان متواضعاً فلا تدل على أن له علاقة بهذا المكان. وفي هذه اللحظة يظهر تنافس المساجين في موهبة الفراسة ويبدأ كل شخص منهم يعطي تخمينه الأولي، فملامحة بسيطة لا تدل على أنه ينتمي لبيئة غنية، كما أن مصطلحاته تدل على أنه شخص متعلم.

كأي سجين يقابل بوابلٍ من الأسئلة عند دخوله، وخلف كل سؤال يسود الصمت لبعض ثوانٍ.

- ما جنايتك أيها الرجل؟

- لا جناية لي، يدي لم تطل أحداً بالأذى ولم تأخذ حق أحد إطلاقاً.

ضحك أحدهم وقال بسخرية:

- ألا يوجد غير هذه الإجابة؟ جميع هؤلاء أتوا هنا مظلومين.

فنطق كبيرهم في حركة هادئة وأخذ يشير بسبابته إلى كل واحد من زملاءه في الزنزانة وبدا أنه حاد الطباع يتكلم بجرأة وصوت جهوري. قال:

- هذا الذي أمامك كان ينعم بحياة طموحة لا ينقصها شيء وسط وظيفته المرموقة وحياته المستقرة ونفوذه الاجتماعي الذي يزداد مع مرور الوقت بسبب منصبة الحساس وأسلوبه الراقي في التعامل مع الجميع، لكن نزواته الفردية التي كان يمارسها بعيداً عن الناس من ليال حمراء وإدمان للكحول هي من جلبته إلى هنا. ففي حالة الإدمان وفقدان العقل وبعد تجاوز حد الشراب خرج إلى حتفه متجهاً من مخدعه السري إلى حيث ساقته الأقدار هنا، وتحول من الأعلى إلى الهاوية، ويده التي تعود بها على المصافحة ولمس الأشياء

برقي والتي لم تتعب قط ربط بها الصرافة الآلية على جانب الطريق بسلاسل حديدية وشد الغلال جيداً ثم صعد بجسمه الضخم سيارته الصغيرة واقتلع الصرافة من جذورها في الأرض وهو فاقد الإحساس بما حولة وأخذ يسحبها في الشوارع معلناً نهاية رجل كان قد وضع له أهدافاً يحققها وماهي إلا لحظات قدرية حتى انتهى به المطاف مجرماً قبضت عليه الشرطة دون أدنى مقاومة وأودعته السجن، ولا أخفيك أيها الجديد أن المدينة ذهلت وصدمت وبدلاً من أن تشكره على ما قدم لها في سنواته الماضية، كانت السباقة إلى تأييد إجرامه ونبذه إلى الأبد، أما هو فلم تتغير سجيته التي تراها الآن، إذ لمجرد أن تسأله عن حقيقة الحادثة التي انتشرت في أوساط هذه المدينة يقول لا علاقة لي بالأمر وأن هنالك أشخاص كانوا خلف الإطاحة بي، لست سوى مشتبه به، وتحت الشعار الذي يرفع دائماً كل ناجح محارب، لم يقتنع بأن القدر كان خصمة اللدود وما أن التفت إليه حتى رده بهبة ريح، بينما كل الأدلة تشير إلى أنه صاحب الجرم. نحن مجرمون ونعرف بعضنا جيداً، أما مدينتنا فلا تحتاج إلى قناة تلفزيونية أو مذياع فالأخبار ما تلبث أن تنتشر كالنار في الهشيم وقد أخذت موقعها في كل بيت وكل أذن، وإنكاره هنا لم ينفعه فهو يقضي سنته الخامسة في السجن وكأن كل من كان يعرفهم وهو في المنصب لم يعد يعرفونه بعد أن وصل السجن. يا لهذه الحيرة والخذلان.

أما الصعلوك بجانبك والذي تشير ملامح وجهه إلى المكر والخديعة فإنه ينكر أن له علاقة بفضيحة التحويلات المالية إلى الخارج التي هزت الإعلام وتحولت إلى قضية رأي عام، فعلم الجريمة يخبرنا بأن كلما زادت وسائل الأمان وسدت الثغرات التي كان المجرمين يستخدمونها كلما ازداد معها دهاء المجرمين في تطوير وسائلهم في الخدع المصرفية، وهذا أحد هؤلاء المجرمين الدهاة إذ إن ذكاءه لم يسعفه في أن يبعده كثيراً عن هذا المكان،

والخطأ الصغير في عالم الإجرام وإن كان لا يرى فإنه يسير ويكبر ككرة الثلج إلى أن يوقع صاحبه في شر أعماله. وبرغم أنه استطاع أن يحول ملايين الأموال في السنوات الماضية دون ضجيج أو أن يضع خلفه دليلاً واحداً يدينه فإن خطأ بسيطاً ألقاه نحو حتفه: تأتي قصته عندما اتصل بأحد مستقبلي الملايين في الخارج ليعطيه تعليماته الجديدة والتي يغيرها بشكل مستمر لكي يصعب تقفي أثره، وفي أثناء المكالمة سمع المستقبل صوتاً في سماعة أخينا وهو إعلان المطار النهائي للرحلة الجوية المغادرة والمتجهة إلى مدينة ورقم الرحلة الخاص بها، وظلت الأجهزة الأمنية تراقب التحويلات دون معرفتها اسم المرسل ولكنها عرفت المستقبل وقبضت عليه في دولته بعد الموافقة على التعاون الأمني بين الدولتين. وما إن استجوب المستقبل وقدمت له تسويات اعترف في الحال باسم المرسل وأخبر الجهاز بما يعرف من معلومات.

الحقيقة هو لم يخبرهم إنما قال أنا لا أعرفه لأنه حريص ويغير معلوماته بشكل دائم وهو حذر وذكي للغالية لكن في نهاية الاستجوابات الكثيرة أفاد بأنه سمع صوت منادي المطار خلال مكالمة دارت بينهما وأعطاهم الرقم واتجاه الرحلة وخلال مراقبة جميع ركاب تلك الطائرة التي دونت أسماؤهم اتضح أنه هذا الرجل الذي يستلقي على سريره منذ ثلاث سنوات وأربعة أشهر. بقي تحت المراقبة المكثفة لمدة شهرين حتى قبضوا عليه متلبساً أمام جهاز الحاسوب وقبل أي يقوم بأي عملية حذف، أتعلم كنت أتمنى أن يستفيدوا منه ومن قدرته على القرصنة والتلاعب بالأنظمة البنكية بدلاً من سجنة وخسارة موهبته، فالمجرم في هذه المدينة لا يُرى إلا بمنظر سيء واحد، ولا يمكن لهذه النظرة أن تتغير، وعلى الرغم من طول فترة محكوميته إلا أن ذكاءه ودهاءه لم يتأثرا كثيراً، فلا يزال يرى نصف الذين معه في الزنزانة بما فيهم أنا مخبرين يرصدون كل تحركاته في السجن ولا عجب في ذلك،

فهو عضو غير مفيد وكل ما يعرفه أنه لا يعرف شيئاً ولكن شاهد كيف هي الأقدار شريكة في الإطاحة به، فهي لا تفرق بين الذكي والغبي ولا تعني لها هذه الفروقات أي شيء على الإطلاق.

أما الآخر الذي يضع ظهره على الجدار ويمد قدميه أمام الذي يجلس بجانبك أيضاً فقد تسبب بجروح سطحية كادت أن تودي بحياة الجاني ولا زال يصر على أنه لم يكن في المدينة في ذلك اليوم مع أن الكاميرات شاهدته ملثماً وتم التعرف عليه من نوعية الرصاص المطلقة من البندقية في موقع الجريمة، وعند البحث عن قائمة الأشخاص الذين يشك بهم المجني عليه ذُكر زميلنا هذا في أعلى قائمة المشكوك فيهم، وكل ذلك من أجل أرض جديدة في صحراء سادها الصمت منذ مئات السنين ولا تصلح للعيش ولا الزراعة وكأن جميع عقد الحياة التي يختصمون من أجلها الناس انتهت ولم يعد إلا هذه الأرض البائسة، ولا تزال المرأة والأرض أكثر ما يثير رجل هذه المدينة ويقلق مضجعه ويحوله إلى كائن تسقط لدية قيم ومعاني الحياة ثم تتركه معلقاً في تاريخه القائم على البطش والغيلة.

وبطبيعة الحال فأنا محدثك متهم بترويج المخدرات وقد أمضيت في هذا المكان ثلاثة أشهر وأنا كغيري بريء، وإن كنت ستسألني – وهذا سؤال أتعرض له دائماً – ما إن كنت نادماً على فعلتي فأريد أن أخبرك شيئاً: أنا رجل من عائلة غنية ثرية لها تاريخ بمئات السنين في تجارة التجزئة حول العالم، فنحن نوحد العالم والبشرية في مائدة الطعام الخاصة بنا و اليومية فاللحم يأتينا من شرق آسيا والأرز من أطراف جبال الهملايا والمكسرات صينية والكاكاو من أغلى ما عرفت البشرية ونستورده من بلجيكا ونخصص له طائرة خاصة وتحت درجة حرارة معينة تقله إلى ساحة بيتنا في قلب المدينة، وأحاديثنا ليست كبقية الناس فنحن نتحدث بكل ثقة عن الأحداث قبل وقوعها، فإن لم نكن مشاركين في صنعها أو تغييرها فنحن في أضعف

الأحوال ملمين بها ونعلم من يقف خلفها، أعلم بأنك ستقول في نفسك بأن هذه من أكاذيب دعايات المؤامرات وكتابها الذي يسوقونها ولكنها الحقيقة، فنحن في هذه المدينة نمثل الطبقة البرجوازية والتي تدير الأحداث وتصنعها وتنشرها دون أن نظهر في الواجهة أو أن يعرف عنا أحد. وإن كنت تسأل لماذا أنا هنا في قضية لا ترقى لمكانتي الاجتماعية وهي ترويج المخدرات؟ سأجيبك بكل تجرد وبعيداً عن المثالية: انظر أيها الجديد، نحن خلقنا لنصنع المجد ولكل زمن مجده الخاص، فمجد هذا الزمان هو وسائل الربح السريعة، وعندما تنشر المخدرات في المدينة بشكل كبير فإن أرباحك تزداد بشكل كبير وخرافي، وكلما ازداد ما تملك من مال زادت حاجة الناس إليك حتى وهم يعرفون بأنك سيء السمعة فالمال هو من يطوع المبادئ ويعيد تعريف كل الأشياء التي عرفت نفسك بها. المبادئ والقيم تخضع أمام سيدها المال، وحتى وإن كنت لا تخضع لها لكنك تجد نفسك تابعاً لقطيع يحركون رؤوسهم بالموافقة والرضا، وبهذا الطريقة استطاع المال أن يحكم الغرائز البشرية ويطوعها لخدمته، وإن كنت تعتقد أنني نادم أو في طريقي للتوبة فأنت واهم، فأنا هنا وإن طالت المدة في استراحة محارب، فأنا لا أجيد إلا هذا العمل وإن توقفت عنه فأنا إنسان لا قيمة لي لا في نفسي ولا لدى الناس.

ظهرت على وجه الجديد أثار الفجيعة والاستغراب مما سمعه من كبير المساجين وهو يحكي قصصهم. فهو يعلم أن الأمر سيء ومقيت ولكنه لم يعتقد بأن وصل إلى هذه المرحلة الضحلة والكارثية. نظر إلى الكبير وقال بكلمات مرتبكة:

– وماذا عن ما تسببه للمجتمع والمدينة؟! ألا تعلم أن المخدرات...

لكن الكبير قطع حديثه وقال له بنبرة غاضبة:

اسمع أيها الأبله، كف عن الحديث بلغة المثاليات فأنا لا أهواها، أنا

أقدم لهذه المدينة ما لم يقدمه أجدادنا لها من قبلنا. بهذا المال افتتحنا المساجد ودور الرعاية وحفرنا الآبار للناس وأطعمنا الفقراء والمساكين فإن كانت يدنا اليسار متسخة فإننا نضعها خلف ظهورنا ونقدم اليمنى بيضاء ناصعة بدلاً عنها، وما أن أخرج من هذا السجن سأغرق المدينة بالمخدرات، ولتعلم بأنكم أيها المثاليون تتذكرون ما تريدون وتنسون ما تريدون، الناس هنا يموتون بالمجان قبل أن أخلق أنا وأنت، وتاريخ هذه المدينة حمام من الدم مغلفة بقيم واهية ضعيفة تظلم الإنسان وتستعبده وتضعه في قوالب طبقية يعيش ويموت فيها، ومهما كان ما أقدمه الآن من سوء إلا أنه يقل عن فظاعة ما كان يقوم به أجدادنا ومع ذلك تقدمونه لأبنائكم كقدوة يحتذى بها، ولا يخدعك مظاهر الناس فأشهر تجار المدينة الذي يدعون أنهم بدأوا حياتهم من الصفر بالكفاح وأنهم حفروا الصخر ما هم إلا دجالين، بدايتهم كانت بترويج المخدرات، صحيح بأن تكلفة الوقوع في يد السلطات باهظة وثمنها كبير ولكن الأمجاد التي ستحققها تستحق الإقدام والتضحية..

قاطعه الجديد:

- ولكن لا يبدو عليك بأنك مستخدم؟!

رد عليه الكبير:

- ومن قال لك بأنك يجب أن تكون مستخدماً أو متعاطياً لها، في حياتي كلها لم أستخدمها ولن أستخدمها، فهي مضيعة وهلاك وذلك الكلام الذي نعرفه جميعنا. أترى هذا السجين المتكئ على جنبه الأيمن ذو السمرة الشديدة والهالة السوداء تحت عينه وكأنها فحم منجم؟ نطلق عليه اسم ملك الحشيش، كان فيما مضى أهم شخصية عرفتها المدينة، وهذه الأهمية ليست إلا لأنه يجيد تقييم نوعية الحشيش ويعرف البضاعة الجيدة من الفاسدة، وهذا في مجال تجارتنا يعد مهماً جداً، فقبل أن نطرح بضاعتنا في المدينة وننشرها للموزع

نعطيه عينة منها ليدخنها ويخبرنا هل هي ذات جودة عالية أم ضعيفة، وبعد أن يلف الورقة على قطعة الحشيش و برشفه واحدة يخبرنا رأيه، حينئذ رأيه هو من يحدد سعر ونوعية المشتري، فشرائح المجتمع جميعها تستخدم هذا المخدر بما فيها النساء والأطفال ولكن حسب مكانتك تجد النوعية المناسبة لك، ولأن الزعيم الذي لا يعرفه أحد و الموزع الكبير في المدينة وجد من ينوب عن هذا المسكين سرعان ما أصبح كالورقة المحروقة، قرر أن يضحي به بكل سهولة وها هو أمامك يقضي سنواته السبع وبقي منها ستة أشهر. يا عزيزي القوة لها السبق في كل شيء، نحن وإن وجدنا هنا فنحن سادة زماننا ومكاننا، المخدرات أصبحت بطولة وأسرع الطرق للمكانة الاجتماعية والنفوذ، وقصص أكبر مروجي المخدرات في العالم أصبحت تقدم كشخصيات بطولية يقتدي بها الصغار، هل تعتقد بأن الإعلام لا يتعمد تقديم هؤلاء كأبطال؟! إنهم لغة عالمنا الحديث التي سينطق بها الجميع عما قريب، وهناك دول أصبحت تسمح باستخدام المخدرات ودول أخرى أصبحت تصدرها وتؤمن طرق سيرها للعالم، وهي الطريقة المثلى لكي يحافظ الفقراء على فقرهم وتتضاعف أموال الأغنياء.

أخذت الابتسامة الصفراء تشق وجه الكبير:

– اسمع أيها الجديد لا داعٍ أن تخبرنا بقضيتك التعيسة فلا أعتقد أن هيئتك وضحالة إدراكك بما يحيط حولك تدلان على أن لديك قضية أكبر منا، ولكننا بلهفة نريدك أن تحدثنا عن الخارج. ما الأخبار؟ ما الذي تغير منذ دخولنا إلى هنا؟

تلهف باقي المساجين للسماع وكأنهم كلاب جوعت وينتظرون سيدهم يلقي عليهم اللحم لينقضوا عليه، عندها اعتدل الجديد وضرب الجدار بقبضة يده قائلاً:

– يا لهذه الريبة و الارتباك فما عساي أحدثك عنه، شعوري بالأسى على هذه المدينة التي ضاعت وانعدمت ملامح الاتجاهات فيها، كل الأشياء لا تبرح أن تغير أماكنها، ولا حتى أناسها الذين أصبحوا ينافسون صلابة أرضها، وهذي الحياة فيها جرداء خاوية، تدور فيها الظروف والصراعات بتشابه كما لو أنها مستقيمة حتى في انحناءاتها، وإن كنت غريباً فهذه اللافتات على الطرقات لا تصف لك الكثير عنها، أسماؤها يصعب عليك قراءتها وكأن اللغة فيها لم يطرأ عليها تغيير منذ الجاهلية الأولى، أو كما لو أنك تقرأ الكلمة باللاتينية من أقصى اليسار إلى اليمين، وأرضها التي تحمل شجر الفخر يتساقط منها في كل حول ثمر العزة والكرامة وتطل بأوراقها كظل ينعم به إنسانها ها هي كما ترونها من شرفة السجن جفت وذبلت ولم يعد في وسعها أن تعطي أكثر، وتحولت مزارعها التي كانت خضراء على مد النظر إلى مستنقعات بارود وظلت رائحة الموتى عالقة في سمائها، وتبخر الأكسجين كما لو أن الأسمنت هو المصدر الذي تتنفس منه كائنات هذه المدينة، أعلم بأن فترة وجودكم هنا ليست طويلة ولم يفتكم الكثير سوى الروتين الممل، فكل فئة من الناس مجتمعه كالثكنات عسكرية منزوعة السلاح، لا يربط بينها وبين الفئة الآخرى سوى الأعراف والنظم البائدة، وما أن يعود الجميع إلى حيث خرجوا تجدهم في كل يوم يتصارعون كالديكة. أسمعوني جيداً، أنا أعلم أنكم ترون الحياة في الخارج، وتعتقدون أن ما خلف هذا الجدار يستحق العيش لأجله ولكن من أخبركم أن ثمة حرية تنتظركم فهو لا يقل غباء عنكم. البشرية عبر التاريخ زهقت أرواحها تحت شعار الحرية، ومع كل حرب كانت تنتهي كان هناك وهم قد أسقط أمام أعينهم، مما قاد البشر إلى الشك بأن الحرية ليست إلا شعارات ترفع من الحين والآخر ليصل أربابها إلى غايتهم ومن ثم تختفي حتى تظهر تحت شعار آخر وفي زمن آخر، كما أنّ مفهوم الحرية إن اتفقنا بأنّه فك القيود بأشكالها، فإننا نعيش في

مدينة قيدها الزمان وأعاق وجودها ووضعها خارج الطريق دون أن نفهم السبب. لا يوجد ما يستحق أن تشتاقوا إليه أو أن تعيشوا من أجله في هذه المدينة الموحشة فهي ليست إلا وكر للكآبة والضياع والناس هنا أثقلتهم الماديات والمظاهر وحطمت إنسانيتهم وجعلتهم لا يضعون للعلم والمعرفة أي وزن يذكر. كلما زادت معرفتك بهذه المدينة المحرمة زاد أعداؤك وزاد بؤسك، وفرحتي بأنني هنا بمنأى ومعزل عن كل ما في الخارج لا تعادلها فرحة، لكنها لم تتم إلى أن سمعت حديث كبيركم عن مديتنا وما وصلنا إليه، ما فائدة الأخبار؟! يبدو أن التي تنتظرونها تغذي لديكم ما لن تجدوه عندي ولست من أهله.

أحاطت السلبية بالمكان فالجميع لم يحصل على غايته من الآخر ولم يجدوا عند الجديد ما كان السجان يخفيه عنهم، والجديد لم تتحقق له فرحة الهدوء من صخب المدينة.

تحدث أحدهم بهدوء:

– أنت لا تريد أن تخبرنا بسبب قدومك الحقيقي ولا تريد أن تخبرنا بما في المدينة من جديد، وكأن كلاً منا يرى المدينة من منظوره الخاص الذي لن يفهمه الآخر، ومن حديثك عرفنا من أنت ولم أكن أتوقع بأني سأجدك في هذا المكان، ولكن في هذا الزمن كل شيء ممكن.

نظر المساجين إلى المتحدث ولكن الجديد قطع عنه حديثه:

– اسمعني جيداً يا هذا فأنا لم أفعل ما يستجوب الزج بي هنا، كلما قمت به أنني بقيت اطّلع وأتفحص ما بين السطور لأرى إلى أين نحن ذاهبون، أو إلى أين ستقذف بي الأقدار، ففي صغري كنت سعيداً لأني لا أعرف، وظل جهلي يؤنسني ويضع الدنيا بيضاء في يدي بلغت الحلم لم يتغير الأمر كثيراً شعرت أن العالم يدور من حولي وحدي، وأن لا رأس يطل رأسي، وما إن

كبرت قليلاً وخرجت من غلافي إلى العالم الآخر حتى أدركت بأن في الأمر خطأ، نحن في الهامش هذا والعالم من حولنا سبقونا بينما نحن لا نزال في هذا التيه وهذه الغبطة الطويلة، أغوتنا العظمة والاعتزاز بموروثات عفا عليها الزمن حتى نسينا قدر أنفسنا لدى العالمين.

مرت الساعة تلو الساعة وساد الصمت في الزنزانة وكأنه لم يمر عليها لحظات كهذه من قبل. فقدوم هذا الجديد إلى هنا أعاد كل سجين إلى التفكير في مصيبته الخاصة وبدا وجوده وكأنه عقوبة مرصودة فوق عقوبتهم التي يقضونها، وحاول الكبير أن يضفي بعض الدعابة إلى الجو العام في الزنزانة لكن محاولته باءت بالفشل ولم تساعده خبرته كثيراً في التغير كما يفعل دائماً وقبل أن يأتي هذا السجين، عندها اعتذر الجديد من السجناء وقال لهم أعلم بأني كئيب وأعيتني السوداوية حتى ملأت تجاويف صدري وسيطرت على مناطق حروفي إلا أنني أرى ما لا يراه أحد في هذه المدينة وأتى بي قدري إلى هنا ليثبت لي ما كنت أعتقده، ولعل كل ما قمت به وجلبني إلى هذا السجن هو أنني عرفت وفكرت وقررت بأن أعيد تعريف الأشياء، وفي يوم ما من استيقظت من نومي وبالمصادفة نظرت إلى ساعتي التي كانت تتضمن مربع التاريخ داخل محيطها تشير إلى الثانية عشر ليلاً وستين ثانية وهذا يعني بأني أمضيت ثلاثين سنة ودقيقة في هذه الحياة، وضللت أجهش بالبكاء بسبب سرعة الأيام وكيف حملني الوقت إلى هذا العمر في أسرع مما يمكن، وما الذي قدمته لنفسي وعندها أدركت بأنني كنت كالوعاء الفارغ، وأول خطوات المعرفة هي أن تعرف بأنك جاهل، ومن هنا كان طريقي إلى هذا المكان، وتوالت الأحداث والصدامات وبدى لي أنني أواجه قطيعاً لوحدي فهنا كل الجرائم رأيتها تغتفر لأصحابها ما عدا جريمتي في أن أكون مختلفاً، وأن أعيش حياة أختارها حسب قراراتي وليس كما وجدت أبي وجدي عليها، حينها قبضوا علي وها أنا بينكم.

سأل الكبير باستغراب:

– وما التهمة التي وجهت إليك؟

– كل ما قاله لي المحقق هو أنني متهم بمخالفة السائد والإخلال بالنظام المجتمعي، ومحاولة زعزعة القيم الراسخة لدى إنسان المدينة.

مر يومٌ ولكن الجديد لم ينم. ظل مستلقياً على ظهره، بالعادة لا يكف السجين عن الأسئلة عندما يدخل الزنزانة أول مرة، إلا هو وكأنه لا يحتاج لمعرفة أي شيء عن هذا المكان أو ما قد يتعرض له، بينما غط المساجين الباقين في نوم عميق، وما أن صحوا من نومهم حتى عادوا ليتهامسوا فيما بينهم عن الجديد.

قال أحدهم:

– أعرفه. إنه ابن زعيم كان في القرية، وعندما كنت في الخارج سمعت عنه الكثير من الأشياء، والده الذي تجاوز الستين من عمره متزوج من أربع نساء ولديه من الأبناء ست وأربعون ما بين ذكور وإناث، ويحظى بمكانة وتقدير لكونه إمام مسجد القرية وزعيم قبلي وبرغم تواضع حالهم لكن هذا لم يكن عائقاً لأن يظل محترماً في عيون الناس، ولكن الغريب هو ما إن يكبر الواحد من أبناءه حتى يقرر هجر المنطقة بلا عودة، ويتساءل الجميع عن سبب القطيعة بين الأب وأبنائه، عدا هذا السجين الجديد الوحيد من بينهم الذي خدم أباه والقرية، فأبوه معروف بشهامته وكرمه ومساعدته لأقاربه والمحتاجين وما أن يقبل على قوم بينهم مشكلة ويدخل فيها يحلها وتعود المياه إلى مجاريها، وهو متعصب للعادات والتقاليد ولا يقبل النقاش فيها، كما أن حب الناس له ومحافظته على صورته أمامهم جعله في مشكلة مع الآراء المتعددة يمثل خط الدفاع الأول عن الموروثات، وعند الحديث عنها يصبح دكتاتورياً لا يعترف بأهلية الذين لا يطبقونها فكيف بمن ينتقدونها أو يرون

زمانها قد ولى بلا عودة، ومن هنا كسب والدهُ سمعة كبيرة جعلته زعيم القرية وأحد رجالات المدينة المعروفين، ولكن مكانته الاجتماعية لم تشفع له لأن يكون محيطه جيداً معه، فهو دائم الصدام مع أبنائه وبناته بسبب مسلماته التي لا يحاول تغييرها. لقد أحرق التلفزيونات واعتبرها مفسدة للعقول وحرمها وكان يذيق أبناءه العذابات والتوبيخ أمام الجميع إن أخطأوا، وبالنسبة لهم لم يكن هذا الزعيم شخصية طيبة كما يراها الناس في الخارج، بيد أنه كان مقتنعاً أن قمع الأبناء والنساء والعبيد تهذيب ونوع مفيد من التربية. نظرة الناس إليه كانت أولوية تجعله يتخذ قراراته من أجلها. وفي يوم من الأيام هربت إحدى بناته بعد أن أنهت مع عشيقها أوراقها الثبوتية لتحلق به إلى الخارج نحو وجهة غير معروفة. ولكن هذا لم يجعل والدها يتأثر كثيراً من العار فلقد قال للقرية أن ابنته ماتت في فراشها ملدوغة من عقرب ولأن العادات تحرم تشييع جثمان الإناث فلقد استغل هذا في أن ينشر خبر موتها. يؤمن كثيراً بأن هذه الدنيا تصفية حسابات وسيظل حوله في النهاية من يحبونه من أبنائه فقط. مضت فترة زمنية تجاوزت السنة اتصلت الفتاة ب أبيها تطلب نجدته بعد أن خانها عشيقها وباعها لمنظمة إتجار بالبشر لتعمل عاهرة، فاستجاب لندائها ودفع ما يملك لتعود ابنته وأعادها بعد أشهر إلى القرية دون أن يعرف أحد عنها، ولكن حبه للناس وسمعته جعلته يفعل ما لم يخطر في الحسبان فلقد قتل ابنته بدم بارد ثم قبرها في المكان الذي كان يشيع فيه جثمانها المزيف وكأن شيئاً لم يكن، وواصل الزعيم حياته إذ إن شكله وسمعته أمام الجميع تكلف في نظره ما هو أكبر من ذلك إذا كلف الأمر، ورغم أن الشائعات بدأت تنتشر في المدينة والقرى المحيطة حولها، غير أن هذا لم يكن بالشيء الضروري أو المهم فليس هناك دليل على فعلة الكهل كما أنه في نظر العامة إن كان الخبر صحيحاً فعل الصائب في حق ابنته التي كانت تريد أن تطمر رأس أبيها في الأرض، أما محيط بيته فلقد واصلوا حياتهم لأن

التفوه بكلمة خارج ما هو متفق عليه يكلف الواحد منهم الكثير، وما من مهرب من هذا الأب وهذا المجتمع سوى أن تصمت إلى الأبد، باقي الأبناء يذهبون بلا عودة، أما البنات فما إن يتزوجوا حتى ينشغلوا بالخدمة في بيت أزواجهن وتربية أبنائهن الذين سيتحولون لأجداد قبائل، وأما الجديد فلقد تعود منذ طفولته على أعمال المزارع والحقول ومعيشة القرية، وعزله عمله منذ الصغر عن معاشرة الناس، ظل برفقة والده ذلك الولد المطيع الذي ينفذ أوامره بدون تردد، ولكن الأسئلة لم تكن تتوقف داخل الجديد إلى أن أتت اللحظة التي تغير فيها كل شيء بالنسبة له، ففي ليلة وضحاها تحول من مطيع إلى معارض لكل ما قام به أباه، وظل في صدام مع الناس، إلى أن كتب قصة أخته القتيلة ونشرها في كتاب وبدلاً من أن يتحول موضوع هذه الفتاة المسكينة إلى رأي عام حدث العكس وتحول هذا السجين إلى رأي عام لأنه تجرأ وانتقد ما لم يستطع من سبقه أن ينتقده، من المؤكد بأن هناك تفاصيل لا نعرفها عن قصته.

3

لطالما كنت أقود سيارتي ببهجة لا أحمل من هذه الدنيا سوى تساؤلاتي الوجودية التي تظل تسيطر على تفكيري وترسم طريقي كل ليلة أقضيها تحت وطأة التفكير في الإجابة، حتى باتت قيمة السؤال لدي أعلى بكثير من الإجابة، وكلما مررت بجانب سجن المدينة كنت أضيف لأسئلتي شيئاً عن ما يحتويه هذا المبنى الشاهق، فمناراته المنصوبة عالياً والحراس الذين يراقبون من أعلاها طوال الساعة وبلا حركة متسمري الأقدام وفي وقفة ثابتة، لم أكن أعلم بأن السؤال عن هذا السجن كان السبب الأول الذي رسم طريقي إلى هنا، كوني سجين فهذا قدري ولكن أن أستحق ذلك فهذا ما لا أستطيع الحكم عليه. أعلم أن مفهومنا عن الإجرام يتغير مع تغير الزمن، وما كان مباحاً في القدم أصبح ممنوعاً الآن، فالمرء الذي كان تحت يده عبيد وجواري كان يعتبر سيداً ورجلاً ذو مكانة، أما الآن العبودية أصبحت جرم يعاقب عليه القانون إلى خمس سنوات سجن، وهذا هو الحال في المخدرات فالأفيون كان مصدر الدخل الأساسي لدول، أما الآن فالمخدرات في نظر العدالة جرم يستحق مروجه أن يقتل أو يسجن. حتى الأخلاق تبدلت، فالكرم الآن أصبح مذموماً وغير محمود، بينما الفضل كله للجشع والطمع في أن يعمل الكثير من أهل المدينة بدلاً من التسول وانتظار إكرامية من أحد الأغنياء أو ميسوري الحال، يا لهذه الحيرة، في حين أن العالم بدأ يقبل الاختلاف وتقلبات الزمان ظلت هذه المدينة تقاوم التغيير وتقاتل من أجل بقائها، ومن فرط المقاومة تسمرت الحياة فيها ولم يعد في مقدورها أن تتحرك إلا ببطء.

مضى اليوم السابع والأربعين منذ أن دخلت هذا السجن، اعتادت يدي على صقيع قضبان حديد الباب، وظل صدري يستنشق نترات الحديد المنبعثة منها بدلاً من الاوكسجين، و كعادة رافقتني منذ الصغر وأتيت بها من الخارج وهي أن أنظر إلى الأفق لأستجوب المستقبل عما يحضر لي، وعلى الرغم بأنه لم يجلب لي في الغالب إلا الخيبات إلا أن عقلي الباطن رسخها واستوحى كل قراراتي منها، وظلت بؤرة عيني طوال وجودي هنا تختلس النظر بلا شعور مني إلى ذلك الباب الموصد وكأنها تنتظر أن يقرع السجان الباب لينادي اسمي ويعلن خروجي. أعلم أن عيني وقعت رهينة إرادة البقاء والحياة والحرية، وأن نفسي اشتاقت للخارج وللقهوة والليل الدامس والطريق الطويل الذي ترتحل فيه أفكاري وتذوب فيه مشاعري وأسئلتي المتقدة، كما أنني كنت أنعزل عن العالم بشكل مستمر ولكن الفرق هنا بأنه بمحض إرادتي وليس بأمر قضائي وتحت تعريف مجرم، بالرغم أنها أربعة جدران سواء هنا أو فيما يعرف بالحرية، ولكنها أفكار لن تجدي معي كثيراً في هذا المكان، فأنا هنا مستمر في التشبث بسوداويتي وبرداء السجن المخطط بالأزرق والأبيض وكأنه السترة الواقية من الرصاص التي تحميني لكي لا تخترق صدري مشاعر الهزيمة والاستسلام، وبدا لي أنني سرعان ما انسجمت هنا، بداخلي بذرة إجرامية كانت تختبئ في قعر أعماقي إلى أن أحياها هذا المكان، وجعلتني أبدو هنا مجرماً تحولت ملامحة البسيطة والهادئة إلى معقدة وكثيرة التضاريس، أو سجيناً قضى قرناً من الزمان وأصبح السجن حياته الأبدية العالق بها. أعلم أن السجان سينادي باسمي ليعلن خروجي ذات يوم، ولكنني لم أرغب في أن يقترب هذا اليوم، فجراح المدينة لا زالت غائرة وتدمي قلبي، أقنع نفسي بأن كابوس المدينة ذهب بلا عودة إلا أن كرهي للنهار وشمسه التي ترسل أشعتها عبر شرفة الزنزانة المطلة على المدينة لتذكرني بحقيقة نفسي، حقيقة ذلك الشاب الذي يدخل في قيود وضعها لنفسه لعله يخرج منها قيوداً وضعها

التاريخ والموروث، ولكن السجن أتى ليعلمني ما لم أدركه في الخارج و أهم دروس أواجهها وأحاول أن أغيرها، وبالنظر إلى حديث السجناء وتأقلمهم معاً، فقد استطاعوا هنا أن يشكلوا حياتهم الخاصة وأن يدفعوا بدفة يومهم إلى الأمام، إلى أن شاع الروتين بينهم وأصبح لكل سجين مهامه التي يجيدها، الكل هنا يقاتل التفكير وفلوله المرتزقة ويزيل كل آثاره فلا وقت للموت الآن، نعم ما أن تلتفت إلى التفكير عن الخارج وأنت رهين هذه الجدران الأربعة حتى يبدأ العد التنازلي لفنائك في هذا السجن، وهذي هي معركتك مع البقاء فكل يوم تبقى فيه حياً هو صفعة في وجه العدمية والفناء، والجميع اتفقوا أن ذنوبهم ليست عدوتهم ولم يأتوا هنا من أجل أن يتوبوا عنها بل هو الوقت، فكلما نقص الوقت من مؤقت بقائك كلما شعرت بلذة الانتصار ومعانقة الحرية، وكأنك سحقت أعداءك بكلا قدميك ورقصت على جثتهم، فالخروج من هنا بالنسبة للسجناء يعادل لذة الانتصار.

وبينما السجن يعيد روتينه اليومي بعد أن انتصف اليوم دخلت القوات الخاصة بأمر من مدير السجن، وهم رجال يرتدون الملابس سوداء القاتمة ويخفون وجوههم بالأقنعة، بعد أن وصلتهم من جاسوس داخل السجن أن هنالك ممنوعات تستخدم وتباع، فهذه الفرقة الأمنية مهمتها مباغتة الزنزانة و الجميع فيها ليلقوا القبض على الممنوعات التي تهرب إلى داخل السجن، وهنا يقومون بجمع السجناء من أرجاء السجن لتفتيشهم بشكل دقيق ومن ثم يقلبون أسرتهم رأساً على عقب ويلقوا بكل أشيائهم في الأرض، وبطريقة فوضوية مستفزة، وما أن تنتهي الحملة خلال وقت وجيز وسريع حتى تجد نفسك أمام كومة من الأوراق والأدوات الخاصة والملابس المتراكمة في وسط الغرفة، وفي لحظة يسود الصمت على السجناء، فإن كنت مستقيماً داخل السجن فهذا لا يعفيك من النكبة التي ستحل بالجميع، فهذه الحملة

أشبه بالإعصار الذي دمر بيوت الكفار وبيوت المؤمنين سويةً، خرجت القوات وفي يدها الممنوعات المضبوطة من حشيش ومخدرات و بطاريات الليثيوم التي تستخدم لتسخين الطعام وصنع أدوات حادة وماكينات الحلاقة جميعها تعتبر من الممنوعات، وماهي إلا لحظات حتى قبضوا على أصحاب الأسرة التي وجدت هذه الأغراض فيها، وأحد المقبوض عليهم ظل يصرخ أنا بريء هذه الأغراض ليست لي، إنما وضعت في سريري ولا أعلم من صاحبها، صدقوني أنا بريء وجميع هؤلاء المساجين يعرفوني جيداً، ولكن هذا الصراخ كله لم يؤخذ بعين الاعتبار من قبل القوات فلا وقت لديهم للتحقيق، سحل السجناء ليذهبوا إلى حتفهم، وبينما أنا أنتظر أي ردة فعل من المساجين إلا أنهم بدو كالأصنام، فالموضوع لم يعن لهم شيئاً على الإطلاق، وذهب كلّ منهم ليرعى شؤونه، فهذه المواقف ليست جديدة وتحدث دائماً، أما أنا فكنت أبحث عمن خبأ المخدرات في سرير السجين الذي قبض عليه، ومهمتي أن أعرف هل السجين صادق أم صرخ ليخرج نفسه من الورطة.

عندها علمت بأن السجين نمرود في داخله، ويخاطر بسهولة ولكن من الصعب أن تكسب احترامه ففي أي لحظة ما سيضحي بك، ولكني عدت إلى زنزانتي لأرى ما فعلوا بها، ما هذا؟! أين أغراضي وملابسي وأوراقي وأين الصفحات التي كتبتها، رحت أبحث عنها كالمجنون كالتائه كالطفل الذي أضاع والدته في مكان عام، أرفع الأشياء وأقلبها بحثاً عن أوراقي إلى أن رفع أحد السجناء صوته منادياً من صاحب الكتابات السخيفة هذه؟ عندها ركضت إليه سعيداً لكنه وضع يده تجاهي بحركة تشير إلى أن علي أن أقف مكاني. تسمرت قدماي، لهفتي للأوراق أثارت تساؤلاً لديه عما فيها، وأعاد قراءة الورقة من جديد إلا أنه لم يفهم ما تعني كل هذه الكلمات المتراكمة، فمستوى لغته الشعبية لم يسعفه في اعتبار هذه النصوص جديرة بالاهتمام،

ولكن عيناه وهذا من سوء حظي وقعت على أهم ما في النص، إنه اسم هند. وهنا نظرت إلى السماء لأذكرها بخيباتها التي تتساقط علي كوابل من الحجارة البركانية في كل مرة تتذكرني فيه ؛ عندها نظر لي بخبث و بابتسامة صفراء تدلان على أنه مهما تصنع الأخلاق إلا أن نفسه الدنيئة لا بد أن تظهر في موقف ما، ومن هي هند هذه أيها الجديد؟! وهنا وبلهفة غضب وفي حركة سريعة خطفت الورقة من يده ولكنها تمزقت وقطعت الورقة إلى نصفين، يا لسخرية القدر فقد كان القطع يمر على اسمها، فجعل الهاء في جزء الورقة التي في يده والنون والدال في جزء الورقة التي في يدي، وهو هذا ذات الخط المؤلم الذي يمر على قلبي كلما شاهدتها أو تذكرتها. اعتذر مني بكل سخرية وأعطاني الورقة، وما أن ناولني إياها حتى بدت الضغينة تضع مكانتها في قلبي تجاهه، فلم أجرؤ على أن يتعدى على أسراري التي لطالما خبأتها في قعر أعماقي فكيف بمجرم متهم بعدة جرائم منها السرقة والسطو المسلح؟ نفسه الخبيثة لم تردعه من انتهاك خصوصيات الناس ناهيك عن السخرية مني ومما أعتبره أغلى ما أملك، فإذا القانون لم يردعه فكيف بي، سوف يندم، حتماً سيلعن اليوم الذي تجرأ فيه على مس قطعة من قلبي؛ أخذت الشريط اللاصق لأعيد الورقة لوضعها السابق، ولكنها لا تختلف عن محاولاتي الفاشلة برأب صدع قلبي عندما يعتلي اسمها ذاكرتي.

تركت كل أشيائي ملقاة على الأرض مبعثرة فلم تعد تهمني كثيراً وعدت لترتيب سريري و الاستلقاء عليه محدقاً في سقف الغرفة، وفي لحظة اشتياق لا تتكرر دائماً زاد الأدرينالين من نبضات قلبي، تذكرت تلك الحظة التي صافحت فيها تلك الفتاة الأرستقراطية، كانت المرة الأولى، المكان مكتظ بالحضور، لم يكن يعني لي لا المكان ولا الناس ولا المناسبة، ولأنني لا أعرف كثيراً فلقد سمعت قصصاً من هذا النوع بأن كائنين تقاربا أكثر من اللازم، فانعكس ذلك على محياهم وابتسامتهم، وحتى على أيامهم الماضية

والمستقبلية، عندها شعرت بالتيارات العصبية تطلق إشارتها من كف يدي اليمنى مروراً بقلبي إلى هناك إلى الأعماق إلى حيث تلك الأماكن التي أرهبها الخوف والجزع من هذه الحياة، وكأنها ومضة قادمة من المجهول، أو قنديل ظل صامداً أمام الرياح، أو منارة الشاطئ أخذت تشير بمصابيحها للسفينة الضائعة في عرض المحيط، لكن سرعان ما اختفت وعاد التيه إلى ما كان عليه، وصمتٌ ظلّت في قلبي، وكأن مركز الذاكرة تحول من عقلي إلى أن انتصف بشريط ذكرياته في القلب، وبدأت كل الذكريات الماضية والحاضرة والمستقبلية ذات طعم عاطفي ورديء، بالرغم من أني جيد في إخفاء إعجابي بالأشياء بما أنني نشأت في بيئة لا يعجبها شيء، إلا أنني لم أستطع أن أقاوم حالة الهستيريا التي داهمتني، فغدت الأمور غير متوازنة، أصابني الارتباك في مقتل وبدا أن الجميع لاحظ أنني لست على ما يرام، وبلا رغبة مني ذهبت إليها لمحاولة افتعال حديث، وكانت تستقبل حديثي بكل ودّ، وهذه كانت إشارة جيدة فلم تأخذ عني نظرة استعلائية أو كغشاش يريد أن يبيع بضاعة مزيفة، وفي محاولة مني لإبراز أحسن ما فيّ وهي معلوماتي وثقافتي العامة تحدثت عما أعرف وعن علاقة أجدادنا التاريخية بعد أن عرفتها على نفسي وعرفتني على اسمها، فذكرت لها مخطوطة تاريخية كانت بين جدي وجدها اللذين لم يلتقيا في أرض ولا معركة ولا حتى بالمصادفة ولكن سمعتهم الطيبة في ذلك الزمان القاحل لدى بعضهما جعلت الرسائل وسيلة تواصلهما، وكانت المخطوطة التي أمتلكها رثائية لجدها البعيد من جدي الأبعد، وعلى الرغم بأني كنت أعرض هذه المخطوطة التي وجدتها في إحدى صناديق جدي المتوفي منذ أكثر من خمسين سنة للناس وأقاربي كاكتشاف لا يقل عن الانتصارات العلمية في القرن العشرين، إلا أن من حولي لم يلقوا لها اعتباراً أو أهمية، فجدي وجدها (أعتقد العاشر) كانا يعكسان ما لا ندرسه في كتب التاريخ التي تعرض علينا من أخلاق وتهذيب، وأنا مستغرق في

شرح مأزق التاريخ مع واقعنا المعاصر نظرت إلي عيناها العسلية المتقدتان بالأمل والسرور فإذا هي أشبه بطوق النجاة الذي يلقى للغريق قبل أن يفقد حياته، فالنظر إلى عينيها فقط يعادل سنين من الكتابة عن ملحمة تاريخية انتصرت فيها الحقيقة وغاب الظلام إلى الأبد، فكيف بوجهها النضر حلو الملامح والمشرق، هي ليست فرداً بشرياً تعرض لملايين السنين من مراحل التطور والارتقاء، هي مجموعة من الأرواح الطيبة التي ضلت طريقها في السماء وقررت أن تجتمع داخل هيكل ملائكي يسكن الأرض، وأكملت لها الحديث عن أجدادنا الذين لم يكونوا يعلموا بأنه سيخرج من أصلابهم أناس يتلاقون ويكون بينهم حديث رائع كهذا، وقلت في نفسي لم أرى كمالاً مماثلاً كهذا في حياتي، فالجمال والوعي وشعلة المعرفة في المرء أشياء في العادة لا تتسق أو تلتقي إلا في الأساطير، طلبت مني ببراءةٍ أن أرسل لها المخطوطة وأعطتني رقم هاتفها النقال، وكان رقمها غالياً كوسام شجاعة وضع على صدر جندي بعد معارك الحرب العالمية الثانية، فليس هنالك ما هو أجمل من أن تكون ضمن الكمال أو جزء منه، أو حتى تقف على عتباته لتراه بين الحين والآخر، كما يندر أن توجد أرواح طاهرة كهذه وتقدم لمن هم مثل أرواحنا الثقيلة والغائرة في الظلمة كل هذه السعادة. لم تعرني ذلك الاهتمام الكثير بعد أن زودتني برقمها، فلقد أرخت كلتا ذراعيها، وجلست بلا مبالاة، وبإهمال راقٍ، بدا شكلها ابنة ماء السماء التي أتت لتعيد الأشياء لوضعها الطبيعي وتنقذ النفوس من براثن الشقاء البشري، ظهرت حقارة في نفسي لم أعهدها من قبل، بشكل فيه حسدت كل شيء حولها سواء كانوا بشراً أم جوامد، وبدأ عقلي يرسم الصور الوردية للأشياء، ذهبت من عندي وهي لا تعلم ما تركت وراءها، فهتانها السماوي أنبت ما لم أتوقع.

أرسلت لها المخطوطة على هاتفها وشكرتني بكل لطف ثم غادرت المكان، ولم تعد تجيب على رسائلي ومعلوماتي التي كنت أرسلها لها بين الفينة

والآخرى، يظهر على رسالتي المرسلة لها تمت القراءة من قبل المستلم ولكن لم يكن هناك رد، كنت أتصنع أن الرسائل التي كنت أرسل لها بصيغة جماعية وهي في الحقيقة لها وحدها لأختبر تجاوبها معي، فمن بعد إجابتها الأولى لم تجب على الإطلاق، وكان هذا ما أثار جنوني، إلا أنني لم أيأس فظل قلبي يقود دفة الأوامر في جسدي، وكنت عندما تبهرني معلومة أو فائدة أو كتاب أذهب سريعاً لأفتح رسالة جديدة وأضيف اسمها وحيداً في قائمة المرسل إليهم ثم أبعث لها الرسالة، وكل ما كنت أرجوه هو أن ترد علي، تخيلت أنني أحدثها عن نفسي كثيراً وأبوح لها بما لم أقوله لأحد، ولكن الوقت ظل يجتر عقارب الساعة إلى أن أكملت السنة وأنا أتخيل وأعيش معها في قالب تخيلاتي الوردية، وما أن يشقيني واقعي حتى أذهب لمخيلتي وأراها تنتظرني كما لو أن العوالم الموازية تقاطعت عند نقطة مخيلتي لتشكل عالماً آخر لا علاقة له بعالمنا الذي نعيش فيه.

مضت سنة على أول لقاء لنا وفي لحظة مفاجئة أضاء هاتفي النقال ليعرض لي رسالة منها، إنها منها، كان اسمها أشبه بالشمس وهي تشرق، كان شعاع الشاشة ينسل بخيوط ضوئه إلى صدري، كأنه نفس ذلك الضوء الذي أشرق على أعماقي عندما صافحتها، فكرت هل يجب أن أتأخر في ردي على الرسالة، لأبين لها أنني رجل مشغول وأن لدي ما يشغلني عن الهاتف، وهي لا تعلم بأني أنتظر رسالتها منذ اثني عشر شهراً ولكن بلا حيلة مني، فقد كنت عاجزاً عن فعل شيء، أو بالمعنى الأصح جبان أصبحت الخسارة بيته وملاذه، فالخوف من أن تدفعني للخلف وتقذف بي في غياهب الجب ظل يقف بيني وبين التجربة، ولكنني في نفس الوقت أعذر نفسي كثيراً، لم أعد بحاجة لخيبة جديدة، ولكي لا أتصنع النسيان فجانبي السوداوي ذكرني بنظرتي السابقة للأنثى التي طالما اعتبرتها أحد خيبات الطبيعة وفخاخها التي تنصب في طريقك في كل مرة، إذ على مدى العقود الثلاثة الماضية لم تشكل

لي فكرة الارتباط بفتاة أي أهمية تذكر، ولم أكن مؤمناً بفكرة أن يسير قلبين في طريق واحدة، فأنت وجدت في الحياة وحيداً وستغادرها وحيداً وهذا قدري، ما هي إلا مصافحة وابتسامة عابرة غيرت كل ما كنت تعتقده أو تحول إلى معتقد راسخ لديك، كانت لمحة خاطفة منها عصفت بعقلي المتكدس منذ فترة طويلة، وعندها تلاشت كل الأسئلة في عقلي، يا لنا من كائنات هشة الوجود، سنين وسنين من العصف الذهني والتحليل والنقد والصراعات الفكرية التي خضت غمارها وحيداً وأصابت جسدي بضمور عاطفي قيد أحاسيسي، وما أن ظهرت هند هذه الفتاة حتى ألقت على صدري ثقلاً لم أكن يوماً لأتحمله، ولم يستطع شيئاً تغييري بل زادني إصراراً على ما كنت أعتقده ومع كل يوم وكل حالة رفض وشجب واستنكار وتهديد ووعيد لي، كنت أزداد إصراراً وتأكيداً من أنني الحقيقة المطلقة التي لا تقبل. نظرة من ملاك جعلتني أفيق من غفوة لازمتني كل تلك السنين، لم أكن أعلم بأنها بداية عذاب جديد، وأزمة من نوع آخر، وكأن المليئين بالخيبات لا يهمهم الإقدام على خيبة جديدة، فهذه الحالة لن تجدي معها طرق الاستقراء المنطقي ولا النظرة الشمولية ولا حتى الشك المعرفي، هذا الهاجس بدا وكأنه غلف عقلي ولم أعد أفكر إلا من منطلق هند الفتاة ومن منتهاها. أخذ مني التفكير في رسالتها قبل أن أفتحها أكثر مما كنت لو فتحتها.

لا شيء يذكر، كانت رسالة جماعية تتضمن الإجابة على استبيان من إعدادها في موضوع من الواضح بأنه يخص عملها، بعد سنة اتضح أنني لست سوى عدد من محيطها، فلو لم يكن رقمي لديها لما أرسلت لي، يا للخيبة والألم ولكن هناك أمل أراه في آخر النفق، فأن تكون عدداً أفضل من أن تكون لا شيء، فتحت الاستبيان ووضعت اسمي أعلاه وملأته بما أعرف، من رسالتها هذه عرفت أن اقترابي منها لن يسفر عن أشياء بقيت طوال تلك

الأيام أنتظرها، وأن بيني وبينها كما بين السماء والأرض، وأن الأبد سيكون عنوان هذا الفرقة.

نظر الكبير باحثاً عمن يوكله بتنظيف الأرض بعد أن اتسخت بالأغراض والأدوات. وقع الاختيار علي، هز حينها سريري بقوة ليوقظني من أفكاري:

– قم أيها الجديد، فلا وقت لدينا لهواجسك، خذ المكنسة ونظف الزنزانة جيداً، فأنا لا أتحمل أن يغمض لي جفن مع كل هذه الأوساخ.

عندها طردت التفكير ونهضت وقمت بمهمتي الموكلة لي كعاملٍ نظافة.

4

في جبوب الصحاري المقفرة هناك حيث العدم والفراغ الكوني وضوضاء الصمت التي تضع أوزارها لتتسيّد المشهد، وفي هذه الخلاء الفج كانوا أجدادي يوصمون قلوب أعدائهم إما بالسهام والنبال أثناء الحروب وإما بالنبل والكرم وشيم المروءة أثناء السلم، إلا أن الناس لم ينسوا مصابهم من أجدادي ما جعلهم يطلقون عليهم لقباً من جنس أفعالهم.

أول إرثي من صفات أجدادي هو العناد تلك الصفة الموغلة في جيناتنا الوراثية والتي وإن كانت ذميمة إلا أنها أبقتنا أحياء واثقين نضع من خلالها شروطنا على طاولة الطبيعة الأم بلا تردد ولا نرضى بغير تنفيذها، يا لهذه القوة التي تضمها أجسادنا وعقولنا قبلها، لذلك كفتاة لم أرض أن أبني لي خيالاً أذهب عنه أو لأدعه خلفي بلا محقق، عندها عشقت المستحيلات منذ الصغر وركبت الخيل وكنت حديث مجتمعي الذي لم يقبل أن يرى فتاة تمارس الفروسية، وكان حلمي أن أقفز الحواجز وسط ذهول الجموع المنبهرة كما لو أنني أقفز من فوق الخيبات والظنون وفخاخ البشر التي لا تنتهي، وحيث إن معنى اسمي بالفارسية هو الفتاة القوية، ولا أظن أن أبي اختار لي هذا الاسم إلا لأنه أراد مني أن أكون كذلك دوماً، لكننا دائماً ما نخذل أسماءنا التي تظل كالكابوس تلاحقنا أسباب تسميتنا بها إلى الأبد، وكأنك تحمل من قبل مولدك ذنباً لم تقترفه وتعيش لتثبت عكسه أو تكفر عنه طوال حياتك. ظل شجرة أجدادي العظيمة الضاربة في عروق التاريخ كان يفيء علي بين الحين والآخر لتذكرني بأنني ابنة الشمال، ذلك الاتجاه الطاعن في

الكهولة والذي أخذت الطبقات الصخرية تتكالب عليه من كل صوب إلى أن أخفت ملامحه، لكن آبائي ظلوا أوفياء لذاكرة المكان، في الزمن الذي اتبعت البشرية نزواتها وشهواتها في حب المال والسلطة، وبينما السنين تتقلب و تتقدم حتى توسعت الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع الشمالي، تسيد أبي عشيرته وكان واجهة الشمال برمتها، ولأن أبي قضى جل حياته يحمل تلك الجهة بثقلها الكبير على عاتقة وحيداً، إلا أنه لم ينس يوماً عائلته الصغيرة ومستقبلها، كان له رؤية ثاقبة يضع من خلالها جسده العريض والقوي ليحمينا من مخالب ذلك التفاوت الطبقي، ومن الطبقات الدنيا التي تتصلب من فرط النظر إلينا وتفسر كل تحركاتنا. كل تلك الغوغائية كنا نراقصها كما يراقص الساحر الهندي الأفعى، ننظر إلى عينها ونومئ برؤوسنا دون أن نبين لها أننا خائفون أو مرتبكون كي لا تقضي علينا، ومع خبرتنا في التعامل الطويل معها نعلم جيداً بأن الغفلة أجزاء من الثانية ستكتب نهايتنا. ومما يزيد من قوتنا هو معرفتنا بأنفسنا جيداً وإدراك المخاطر التي تحيط بنا، وهذا ما وجد فينا حذراً شديداً وحساسية مفرطة مما يقع حولنا، أما مساحتنا في الحرية فلم تكن تتجاوز قصرنا الذي يقع في منتصف الشمال، وهذا ما جعلنا نعيش أسلوبين في الحياة في أن واحد، أرستقراطيتنا من جهة وتعلقنا الباهت بأسلوب الشمال القديم من جهة أخرى، إلا أن ازدواجيتنا في هذا التباين بين الحداثة والرجعية جعلتنا نجيد التعامل مع الجميع، فقصرنا كان يستضيف أكابر الزوار ووجهاء المدن الأخرى وفي نفس الوقت كان مكاننا هو مربع عمليات الشمال الذي يصلها جميع أحداثه، وظلت أحداث الشمال وإن كانت رتيبة ومملة تمنح شخصياتنا نوعاً من الحكمة ومعرفة مصالحنا، ومع كل هذه المميزات لم نتصف باللؤم بالقدر الكافي الذي من الممكن أن يجعلنا فاحشي الثراء والهيمنة، وكل ما كان نصب عين أبي هو أن يرى العالم هذا الشمال بالشكل الذي يريده.

كانت النظرة للشمال بكثبانه الرملية الزاحفة وهدوئه الموحش والطلاسم التي تشكلها نجومه غريبة الشكل تنتصف سماء الليل، وبيوته الإسمنتية ذات الألوان الباهتة، ووجوه أناسه العابسة طوال النهار والتي لا تنبئ بأن خلف هذه الوجوه نوايا حسنة، فعلى قدر معرفتي بهذا التجانس بين البيئة وأهلها إلا أن هذا المكان ظل يثير بؤسي، وطالما كنت على ثقة بأنني أستحق المكان المناسب لي، مكاني الأشبه بالعرش والذي طالما كان أبي يحضرني نفسياً له ويهيئني لمستقبل لا يعرفه ولكنه متأكد من جدواه تجاهي فكان يطلق علي لقب ملكة الشمال، إلا أن المكان لم يكن ملائماً لهذا اللقب الرنان، فالطموح والأمل والشخصية كانت أكبر من المدينة وأهلها، فهذه المدينة لا تستطيع أن تكون فيها إنساناً مكتمل الأركان، ولا بد أن تضع فيك النواقص لتتلاءم معها، فالنساء هنا يهرمن في سن مبكرة عندما يصلن منتصف الثلاثين خطواتهن كخطوات حيوان البطريق، وعندما تبحث عن تفسير لهذه المعضلة تجد أن جل أعمارهن يتحدثن عن الماورائيات وتقييم الناس من منطلق رجعيتهن، وكأن عجزهن في سن مبكر لعنة قادمة من السماء، أما رجالهن فلم يتبدلوا منذ مئات السنين حياتهم تدور حول المؤامرة وأعينهم بارزة من فرط الفزع الواهي وكأنها كالجمر تحت الرماد يستطيع المرء منهم إخفاء مقاصده، فإن تمعنت في حياتهم جيداً ستجدها تراكمات من الأكاذيب التي يجيدون تمريرها على بعضهم البعض، أما أنا وعائلتي فلا نطيق أنفسنا عندما نكون برفقتهم على الرغم أن برتوكولاتنا الجَدية في العائلة تجبرنا على التعامل معهم بلا شرط أو قيد، ومع تقدم الوقت ازداد وضوح علاقتنا مع المدينة التي اتضح فيه أننا نسلك طريقاً تجديدياً قائماً على جعل الشمال أكثر تطوراً بينما أهاليها كانوا محافظين مع أسلحتهم البدائية التي يوجهونها باتجاه كل فكرة جديدة تظهر في الساحة، ويبدو بأن هذا التضاد زاد من صنعي لعزمي نحو حياة أكثر استقلالية من مجرد كونها عرض، وبحكم أن لنا

علاقة زمانية أبدية بالخيل والفروسية فلقد ضم محيط قصرنا إسطبلاً لأجود الخيول، ومعرفتنا بها تطورت لنعرف سلالاتها ومدى قدرها، كنت الوحيدة من أفراد العائلة التي حملت هذا اللواء الفاخر وكنت أرى نفسي كما لو أنني برفقة أجدادي عائدين من الانتصار نقود سرب الجنود المتوجة مروراً بباب المدينة إلى حيث الجموع التي تهتف وتنادي بأسمائهم وألقابهم التي عرفوا بها، ولكن ما لا يعرفه الكثير وظل يؤلمني عندما أعيد التفكير فيه هو أن الفروسية تم تعمد تنميطها وجعلها في قالب تنافسي بعيد عن علاقتها بنا كبشرية منذ أكثر من 6 ألاف سنة، فالفروسية ليس رياضة نمارسها بل أسلوب حياة، فعندما تعرفها جيداً ستتعلم منها الكثير من الأخلاقيات النبيلة وسيدور بينك وبينها حوارات كتلك التي تقرأها بين الفلاسفة والحكماء، وكانت هذه ثمرة نضجي الأولى التي وعيت لها عندما بدأت أنبت كأنثى جميلة.

من هذا المنطلق بدأت أحب نفسي كثيراً، ولكن حب في سبيل الكمال. فهيكلي ظل يستجيب لإرادة خيالي وطموحي ويصيغ قوامي الأنثوي، فطولي القويم والممشوق زاد من حدة نظري للأشياء بشكل أوضح إلى الدرجة التي كنت أصيب فيها بفهم الناس قبل أن تنطق ألسنتهم وهذا ما أعطاني السبق لتخطي أصحاب النوايا السيئة تجاهي. بشرتي ناصعة البياض ذات المسامات المتعرقة والتي تشعر الآخر بالاطمئنان عند مصافحتي له وعيناي أشبه بالجوهرة المخبئة ولكنها أقرب إلى العسلية، ومفاتني الأنثوية التي برزت منذ الثالثة عشر من عمري كانت تقوم بدورها كالمغناطيس لجلب الأنظار إلي، صدري البارز كان أشبه بالدرع الواقية من الرصاص، أما خصري فلا يختلف عما كان ينحته مايكل أنجلوا في عصور أوروبا المظلمة، وكل هذه الملامح وإن كنت أتميز بها إلا أنني ورثتها من جدتي التي كانت مضرب مثل زمانها بجمالها المثير، وهذا قد يفسر اهتمام والدي بي بشكل كبير فهو يرى فيّ والدته التي أخذتها المنية منذ عشرين عام، ومع كل ما أتميز به دون أقراني فأنا

أعاني من مرض الربو المزمن والذي يجثم كشبح على طموحاتي ومواقفي، ففي أي لحظة كانت عيني تحمر وينضب الهواء عندما يتذكرني هذا العارض، فلا ينفع بعدها لا الأدوية ولا بخاخات الهواء، وبرغم أن الأطباء حذروني من مواجهة الريح أو الأماكن التي يكثر فيها العوالق الترابية كنت لا آبه بما يقولون، فهم لا يشعروا مثلما أشعر عندما أمتطي صهوة جوادي لأسابق كالريح، أو حين أمارس حياتي الاجتماعية بدون مصدات توقفني.

في يوم من تلك الأيام المظلمة انبعثت من الشمال رائحة كريهة. قُلب الشمال رأساً على عقب وكأن الناس موتى مبعوثين من الأرض، ركبوا سياراتهم المقفصة والأخرى ذات الصندوق وحاصروا قصرنا. كان ذلك الصباح غريب، فعلى الرغم بأن الأحقاد نراها في نفوس الناس إلا أننا لم نعتقد بأنها ستصل إلى هذه الدرجة من الغيلة. خرج أبي ليفهم موقف الناس كعادته التي ظل عليها، بيد أن الصراخ تصاعد عالياً وتشابك مع صرير الريح ليحدث حالة من الذعر لم نعرفها في حياتنا، وتقدم الجموع رجل أربعيني يتكلم بعجرفة كنا نعرفه قدياً بأنه منحرف أخلاقياً إلا أن هيئته الجديدة توحي بأنه التزم دينياً، فقد كان مسبلاً غترته و ذو لحية كثيفة ذات منظر موحش، وبكل جراءة تخطى حاجز السور ووضع وجهه في وجه أبي وقال بلكنة تدل على قلة الاحترام:

– أن تتسيدنا فهذا قدرك أما أن تنشر ما ليس في مدينتا فهذا لن يحدث لو على جثتنا،

ووضع سبابته على صدر أبي وظل يهزه، وأكمل كلامه:

– أن نرى ابنتك تتشبه بالرجال وتمارس رياضة الفروسية فهذا ما لا نقبله ولكن هذا الشيء كان يمارس داخل محيط قصركم وهذا يدخل داخل نطاق خصوصيتكم التي رضيتم بها.

رد عليه أبي:

– إذا ما الذي أتى بك وخلفك كل هؤلاء الفتية وأنت تعلم بأنها خصوصية؟

عندها ضحك الملتحي باستهزاء وقال:

هل تعتقد بأنني قدمت من الجنوب لأخبرك أن ابنتك ركبت الخيل؟ أنا لست على هذه الدرجة من السخف. أتى بنا ما فعله أحد ضيوفك الذي استضفتهم في فندقك على مدخل الشمال، هذا الضيف خطف أحد فتيات المدينة ومارس معها الرذيلة في إحدى استراحاتك ذات السمعة السيئة، وكما ترى – وأخذ يشير إلى ما خلفه من جموع – فأنا وهؤلاء الأبطال قبل أن نأتي إليك أحرقنا فندقك واستراحتك وأتينا إليك لتخرج لنا هذا الضيف لنتصرف معه بما يمليه علينا نزعتنا القبيلة والدينية. وثق تماماً بأننا لن نسمح لك أن تنفذ خططك التي تريدها في شمالنا.

تقلب وجه والدي ما بين ذهول واستنكار، وكأن السماء أرسلت صاعقة لتثبت قدمه من هذا الخبر المفجع ولكنه لم يظهر استغرابه واستبدله برد قاسي موضحاً فيه كل الكلمات وما خلفها من معاني، وقال له غير آبه بمن خلفه:

– اسمعني جيداً. هذا الضيف الذي تتحدث عنه غادر المدينة منذ ليلة البارحة ولا علم لي بما فعل إن كان صحيحاً، وإياك أن تعود إلى هنا أنت ومن معك مرة أخرى.

ولكن الجموع الذي ظلوا يتفوهون بكلمات غير معروفة مستنكرين هذا الأمر زادوا من قوة موقف الملتحي، الذي عاد قائلاً:

– لا يخالجني شك في علاقتك وعلمك بما حدث ولكنني سأنسحب لأراقب القصر وإن ثبت أنكم تخفونه فسألحق هذا القصر بما أحرقته من

قبل، واستدار ثم غادر المكان بضوضاء.

ولأن أبي سليل الثابتين، أرسل حارس القصر ليتأكد من خبر الحريق ولم تمضي ساعة حتى عاد ليؤكد الخبر، فالمطافئ تمكنت من إخماد الحريق في الفندق والاستراحة ولم تحدث أضرار مادية تذكر، ولكن خبر الحريق لم يكن ليشغل أبي كثيراً، فعلى الرغم من أن أبي ظل يدافع ويناضل من أجل الشمال إلا أنه لم يتوقع حادثة كهذه وأن يأتي ضيف مغرور ينتمي لأحد أرستقراطي المدينة البعيدة ويقوم بفعلته الرذيلة هذه، وتذكر أبي حالة الضيف عندما قرر بشكل مفاجئ مغادرة الشمال متعذراً بحالة طارئة. أدرك أبي ما ستترتب عليه هذه الواقعة وأنها عبارة عن تمهيد لشيء ما أكثر سوءاً، فحالة الجموع غير الواعية التي يقودها الملتحي والفوضى التي قاموا بها في الشمال ستجعل المدينة تعاني من صعوبات طويلة. عندها قرر أبي بشكل سري أن نغادر أنا وأخوتي الشمال إلى المدينة البعيدة أكبر مدن الصحراء على الإطلاق. ظل أبي في الشمال وحيداً يقاوم هذا المد المحافظ و ينهي المشكلة بغية أن تعود المياه إلى مجاريها.

5

قليل من التفاهات تستطيع أن تزعج أناس مثلي، وتجعلهم قلقين في أي مكان يعيشونه. في السجن كان لا بد لها من جديد، أبحث عن قصص جديدة في السجن. وكنت ألاحظ ذلك الرجل الذي تجاوز السبعين من عمره. بدا بصحة جيده ومن الواضح اهتمامه بنفسه، فمع ساعات الفجر الأولى وفي كل يوم يبدأ يومه بالتمارين فوق سريره، ومن ثم يرفع السرير بقدميه الاثنتين إلى أن يصل العدد عشرين، بعدها يعود ليمارس رياضة الضغط، ولم يترك هذه العادة منذ خمسة عشر سنة، كان مصدر إلهام المساجين جميعهم. سألت أحد السجناء عن قضيته وأصبت بالذهول، فتهمته هي القتل وهذه لم تكن الصدمة، إنما قصة هذا الرجل؛ ففي أحد الأيام نشب خلاف بينه وبين أحد أقاربه ولكنه لم يستطع السيطرة على غضبه فرفع السلاح الناري وصوبه على ساق الجاني في محاولة منه لأن يكسر قدمه غير أن الأمور ازدادت سوءاً ومات بعد عدة أيام في المستشفى، أما هو فقد لاذ بالفرار. وكانت تربطه بأخوته الثمانية علاقة متينه قوية، ف سلم أخوته أنفسهم إلى الشرطة وادعى كل شخص منهم بأنه القاتل الحقيقي كنوع من التضحية لأخيهم الكبير الذي تحمل عبء حياتهم بعد أبيهم. أخذتهم الشرطة جميعاً وحبستهم لمدة طويلة لكي يعترف أحدهم بالفعلة، ولكن الشرطة فوجئت عندما قامت ببعض الحيل في التحقيقات بأن كل فرد منهم يقول ما لا علاقة به بالضحية وموقع الجريمة والأسباب وظل التناقض سيد الموقف، وكل محقق يفشل في التوصل إلى حل القضية مع تمسك الأخوة الثمانية بموقفهم بحادثة القتل إلى

أن تحول هذا الأمر إلى حدث يشغل الحكومة الرئيسية التي قررت الاستعانة بمحقق بلجيكي يعمل في مركز الإتحاد الأوروبي، وهذا المحقق سبق له أن كشف مؤامرات تحاك من روسيا على بريطانيا في القضية الشهيرة بالعميل المزدوج والذي تمت تصفيته من الروس. جلبته الحكومة وقدمت له مبلغاً مالياً كبيراً ليحل هذه القضية التي دامت شهوراً، وبعد التحقيقات ظهر البلجيكي بالحقيقة الصادمة بأنهم ليسوا مذنبين وأن القاتل الحقيقي لم يقبض عليه إلى الآن، وعند المراجعة في سجل الأخوة العائلي اتضح أن لهم أخ أكبر غادر البلاد بعد ثلاثة أيام من القضية. تم جمع الأخوة في غرفة التحقيقات، وكانوا لأول مرة يرون بعضهم منذ أن استأنفت التحقيقات في القضية وحينما نطق المفوض اسم شقيقهم الأكبر بكوا جميعهم وقالوا في نفس واحد لا علاقة لأخينا بهذه القضية، وعلى الرغم من أن المحقق اكتشف خيطاً متيناً وتم تأكيد عدم علاقة الأخوة بالقضية إلا أنهم مع ذلك تشبثوا برأيهم، أما أخيهم فلم يكن يعلم بما تعرض له أخوته، وأي محاولة تواصل مع أهله تعني معرفة مكانة والقبض عليه، ولكن بعد سبعة أشهر أرسل أحد العمال الذي تعرف على أهلهم في البلد المجاور ليجلب له الأخبار، فعاد العامل وقال له: أخوتك في السجن منذ هروبك، فقرر العودة للمدينة وتقديم نفسه للعدالة، أمضى في السجن خمسة عشر سنة ينتظر فيها أن يكبر أبناء القتيل ليقرروا إما أن يعفى عنه أو أن يقام عليه حدّ القتل بالسيف.

بالرغم من أنني أخاف أصحاب هذه القضايا إلا أنني لاحظت بأن هذا الكهل ظريف ومتواضع ومحترم للغاية ولا يتفوه إلا بالحكمة، ففي لحظة كنت أستمع إليه مع مجموعة من المساجين يتحدثون عن ذكريات الماضي، قال بحنيه كبيرة:

– للأسف أنتم لم ترونا جيداً بالشكل الذي يجب أن تعرفونه، ولا تستطيعون أن تحلوا مكاننا بسببه، نستطيع أن نسترجع الذكريات، كما لو أننا

عمال الفراعنة عندما يرفعون الصخرة ليضعوها في أعلى هرم خوفو.

أعجبتني تلك الإجابة الحكيمة، ولكن أسئلة طرأت على مخيلتي، فما جدوى أن تبقى كل تلك السنوات رهن قرار أبناء القتيل بأن يختاروا لك الموت أو الحياة؟! ومن أين أتى بكل هذه الحكمة والشخصية الرجولية الواعية وهو قاتل؟!

كلما شاهدته في السجن كانت تلك الأسئلة تدور في بالي طوال الوقت. أسئلة كهذه قد تحرج السجين، إلا أنني قررت أن أفعلها، وفي عشاء يوم الجمعة استغليت جلوسه على الطاولة وحيداً، وضعت صحني على نفس طاولته، وقلت له بشكل ساخر لأبدى حواري معه بأجواء لطيفة:

- أهلاً أيها الشايب،

قال لي بسمو نفسه العالية وأخلاقه:

- أيها الجديد أنا لا زلت شاباً ولكن الاحتفاظ بشبابك في هذا المكان مستحيل، فعمري العجوز بدأ منذ أن دخلت هنا.

وكانت هذه المزحة بداية حديث جميل طال بيننا، عندها أجاب على أسئلتي وقال لي بهدوء:

أيها الجديد أنا أقاتل من أجل بقائي ليس لجدوى الحياة، إنما لأعوض الناس الذين وثقوا بي وخذلتهم، فأنا أنتظر الفرصة لأقول لهم لست كما تعتقدون لأتغيّر من قاتل إلى إنسان مات بين عائلته وأحبته كما يموت العظماء.

كانت الإجابة أشبه بالفرحة التي ملأت صدري فلقد كان رده على سؤالين، عندها عرفت بأن ليست كل فعل إجرامي يطلق على صاحبه صفة مجرم وأن ما يعرفه القضاء لا علاقة له بتعريفات الإنسانية.

6

أثرت الحادثة فينا تأثيراً قاسياً وزاد الامر سوء ما ألت إليه الأمور في الشمال فالثائرين وضعوا أبي كبش فداء، وطالبوه بتسليم الضيف الهارب وتقديمه للعدالة، وفي المقابل استنفذ أبي كل خياراته السياسية لتهدئة هذه الفوضى ليجتمع الشمال على طاولة واعية لحل هذه المشكلة. ظهر على المشهد أناس لاستغلال الأزمة وتنفيذ خططهم للاستحواذ على سيادة الشمال واستبعاد أبي وعائلتنا منها، وهذه أجمل فرصة سنحت لهم منذ عشرات السنين لقلب المعايير، وظل هؤلاء الأشخاص ينفثون في الخطاب المحافظ بغية أن تشهد الساحة تقلبات في مصلحتهم. وبينما الشمال يشتعل بالخلافات، وبدأ الناس يستعيدون مشاكل الماضي قرر أبي الصمت إلى أن يهدأ غبار المعركة وتتضح الرؤية ومن ثم يعيد الأمور بطريقته الخاصة لنصابها الحقيقي.

تتصاعد من داخل أعماقي ضحكة فرح لم تعكسها ملامح وجهي على مغادرتي هذا الشمال. لطالما كانت هذه رغبتي طوال سنيني الماضية إلى أن أتت ولم تتأخر كثيراً، ولكن ليس بهذه الطريقة التي تحمل كثير من الألم، فالذنب يدهمنا كلما تذكرنا ذلك الشمال وكيف تركنا أبي وحيداً في ظل تلك الأوضاع المضطربة، فإصراره على مغادرتنا جعلنا ننفذ أوامره دون أن نقاوم رغبته الحكيمة والتي قدم فيها سلامة عائلته ومستقبلنا على اعتبارات أخرى بالأخص تلك المشكلات الواهية والتي تتعلق بأخطاء أناس لا علاقة لنا بهم سوى أننا قمنا بواجب الضيافة.

لم يكن الوضع مريحاً عند انتقالنا إلى المدينة البعيدة إلا أننا سرعان ما انسجمنا معها بسرعة، فعلاقاتنا السابقة بوجهاء المدن الأخرى سهل من مهمة انتقالنا وتعايشنا مع الأوضاع الجديدة. المدينة البعيدة كبيرة للغاية وتتوسع سنوياً بشكل جنوني، كما أنها تضم الكثير من العوائل الثرية وذات السمعة والصيت الكبير والتي حافظت على وجودها بنفسها وبالتعاون مع بعضها البعض في نيل المناصب العالية والمنافسة في المشاريع التجارية وهذا ما جعلها طبقة متماسكة للغاية. صحيح بأن أغلب تلك العوائل ذات خلفية تاريخية لا تقارن بنا، ولكن هذا لا يعني الكثير في ظل الثراء المادي الذي يضع الامتياز في جانب صاحبه.

بدا أن سقف حريتي زاد كثيراً ولكني لم أرض أن يرى أحد أسماء أجدادي في موقع شبهة أو نقد برغم أن المجتمع هنا بدأ أكثر انفتاحاً وتقبلاً للاختلاف مما كنا نراه في الشمال، هنا تفجرت أنوثتي بشكل طاغي وفي المقابل زادت نرجسيتي وتطورت، كل يوم ألوي فيها عنق رجل كان بمثابة انتصار على كل الانتقادات الرجعية التي كنت أواجهها من محافظي الشمال.

تعودت قدمي صغيرة الحجم على المشي نحو الاحتفالات والمناسبات الفاخرة، وتغيرت حياتي بمسيرة ساق و قدم، فمن حذاء الفروسية القماشي الذي يصل إلى منتصف ساقي إلى أحذية الكعب العالي التي أثير بقرع خطواتها قلوب الرجال. سمعت من إحداهن يوماً بأن أحذية الكعب تم اختراعها في الأصل من قبل الفرس القدماء ليزاولوا الفروسية بها، ولكن يبدو أن النساء أعجبتهن فكرة أن يضرب بها بطون الخيل لتنطلق، فقررت المرأة الأولى التي خطرت لها هذه الفكرة أن تستخدمها لقرع خطواتها قلوب الرجال، ومن هنا تطورت فكرة المرأة للإيقاع بالرجال في فخها، والأمر كان مستحسناً لي بل بدا مسلياً للغاية، فهذه المحافل التي يسدل بها ستار اليوم

كانت أشبه بخشبة مسرح يعرض عليها كل ما وصلت إليه الموضة والأزياء من الجنسين، وهنا بدت تجري الحياة المدنية بطابعها العصري مجرى الدم داخل عروقي، شبكة علاقاتي تزداد بشكل مثير، وأصبحت لا أميز النساء و الرجال الذين لا أتأخر في تدوين أرقام هواتفهم لدي كمبدأ تعارف، وإن لم تكن هنالك علاقة مباشرة معهم أو مواعيد غرامية إلا أن مشاهدة صورهم وحالاتهم اليومية وهم يستعرضون جمالهم وحالتهم الاجتماعية الفارهة كانت تشعرني بإثارة لغرائزي التي لم أكن سأعرفها يوماً لو لم تحدث مشكلة الشمال.

فما كنت أعتقده في نفسي ولم يكن صحيحاً بأني لست من النساء اللواتي يترددن على المحافل ويحاولن كسب قلوب مفعمة بالتعاطف، فأنا لست في حاجة إلى الحنان والعاطفة بعد أبي، أعظم رجال العالم على الإطلاق. وفي أحدى تلك المحافل الخاصة للترويج بمنتج غذائي يدعم البشر ذوي الميول النباتية تجاه وجباتهم اليومية والتي أصبحت موضة غذائية راج بسببها مصطلح النباتين، بدأت شركات الإنتاج تتنافس باستهداف هذه الفئة، وقامت إحدى تلك الشركات بإرسال الدعوات للحضور وكنت مدعوة لتدشين الشركة لمنتجها الذي يواكب تزايد فئة النباتين بين المجتمع. شمل المحفل عرضاً دعائياً برسائل تستهدف العقل الباطن للبشر بضرورة استبدال ما يأكلونه، إلا أنه لم يكن ذو تأثير يذكر فالمحفل كان يضم كبار أثرياء المدينة البعيدة وطبقتها الأرستقراطية، وهذه العقول تعرف الغاية من هذه الدعايات ذات البعد المادي وما الفئة التي تستهدفها، فالحضور لم يكترث بالدعاية وتغير طابع المحفل إلى طابع تعارفي يقوم فيه الأرستقراطيون بالتعرف على بعضهم بشكل أكبر. وقعت عيني على الرجل الأكثر إثارة ووسامة بين الحضور والذي أتاني بمحض إرادته بينما كنت أتصنع عدم اكتراثي به، قال لي بصوته الرقيق والهادئ:

– أهلاً،

وكأنها كلمة جديدة لم يسبق لي أن سمعتها من قبل، فالكلمة وصوته أعطاها طابعاً سحرياً يثير الأذن التي تقع عليها، وبرقيّ المعتاد أجبته بالمثل، وتلك المرة الأولى التي لم يكن يعنيني فيها الحضور كثيراً، وبدأت الحمرة تتخذ شكلها ببروز على وجهي. عرف عن نفسه وكان قريباً لصاحب الشركة، ومن هنا تصاعدت علاقتي معه بشكل كبير وتخطت ما لم أعتقد يوماً بأنني سأتجرأ وأتخطاه. ففي اليوم التالي اتصل بي وطلب اصطحابي بجولة في سيارته الرياضية. ورغم مشاغلي إلا أن إلحاحه كان لذيذاً ويصعب رفضه، عندها أخذني ليريني تلك الأماكن التي لا يزورها إلا طبقته والتي صرف في تحسينها الملايين، ومن ثم ذهب إلى الجبل العالي موزعاً ضحكاته في كل مكان، صحيح أن حديثه سطحي للغاية ولكن وسامته كانت تجعلني أتخطى هذه السلبية. ركن سيارته التي جعل مقدمتها باتجاه مطل المدينة البعيدة، وفي حركة مفاجئة لم أتوقع حدوثها ألصق شفتيه بشفتي وطبع عليها قبله جميلة وبدل من أن أرفض محاولته لم أتخذ أي ردة فعل. اعتذر لي ولكن هذا الاعتذار أشار إلى أن ما بدأه في طريقة إلى الانتهاء، لذا قبضت بكلتا يدي على وجنتيه وقبلت شفتيه الناعمتين كرد مني على محاولته الأولى على شكل قبلات تتصاعد حرارتها التي كانت تأشيرة مني لدخوله الرسمي إلى جسدي فعانقني وقال لي بصوته الرجولي الهادئ «كم أنت جميلة»، ضعت ولم يعد يحكم عقلي لا منطق ولا مصدات أخرى، وضع يده على كتفي وجردني ببطء من ملابسي الحريرية مع نسمات الهواء الطلق، بينما ضربات قلبي تلامس طبقة جلدي الداخلية، مشكلة ثورة عاطفية في جميع أنحاء جسمي، عندها أخذ يوزع القبلات على كل جزء من جسدي بدءاً من شفتي نزولاً لكتفي ثم صدري العاري، وبعد دقائق قليلة من ذلك العراك بين شوقي وشوقه بدون سابق إنذار هبطت علي غمامة سوداء وجثت على صدري، صحوت

من المعركة المحمومة وقبل أن تصل إلى مراحل يصعب الرجوع بعدها دفعته وقلت له «كفى»، أعادت هذه الغمامة شريط ذكرياتي، تذكرت قيمتي التي لم أستمدها من المال ولا المظاهر إنما من عراقتي التاريخية ومجد أجدادي التليد، نظرت لنفسي وأحسست بشعور قبيح مليء بالخزي، سألت نفسي «من أنت؟! وما هذا التي تفعلينه؟! وهل يستحق هذا الرجل امتياز جسدك وعبق روحك» ويا له من ألم يصيب المرء عندما يتقاطع عقله مع قلبه في تلك اللحظات الخاصة. عندها أعدت ملابسي إلى وضعها السابق وطلبت منه أن يعيدني إلى بيتي، وطوال الطريق لم أقل شيئاً بينما هو ظل يثرثر باعتذارات واهية، كان البكاء ينتظر الفرصة المناسبة ليعبر بدلاً عني.

وصلت البيت لأنهي يومي الذي ختمته بشعور سيء لا يعكس ما بدأت يومي به، وعلى الرغم بأن هذه الحادثة كشفت لي طريقة نظر رجال المدينة البعيدة إلى النساء باعتبارهن سلعة لإفراغ شهواتهم، إلا أن الحظ والحكمة أسعفتني في إنقاذ نفسي في الوقت المناسب، عندها تساءلت عن توافق الشمال ذو الطابع القبلي مع المدينة البعيدة ذات الطابع المدني في نظرتهم للنساء، لم أكن أتعلم من هذا الدرس، فالامتيازات التي قدمتها لي المدينة البعيدة ونمو علاقاتي الاجتماعية جعلني بلا تخطيط أتجاوز هذه العلاقة، فأنا غير قادرة على الحب رغم أن هذا الرجل لم يحدث منه ما يستجوب أن أرفضه بهذا الشكل لو لم أسمح له بذلك، إلا أنني قرأت في لحظة ما في عينه لؤم واستغلال كتلك النظرة التي يستخدمها التجار الجشعون عندما ينتظرون من المشتري دفع المال من أجل بضاعتهم، وبرغم محاولاته الحثيثة لإعادة العلاقة إلا أنني أقفلت في وجهه الجميل كل الأبواب، وماهي إلا أيام حتى سمعت أنه بدأ علاقة جديدة مع فتاة أخرى، عندها أعجبتني نظرتي للأشياء قبل وقوعها.

7

حالة صمت مرعبة بينما السجناء ينتظرون ما سيقوله السجان لهم، فتح السجان شباك الزنزانة بقوة مفتعلاً ضجة ليستمع إليه جميع من في السجن، وأخبرهم أن الأسمر الكبير وافته المنية بعد أن فحصة طبيب السجن وأخبر إدارة السجن عدم جدوى قدوم الإسعاف إلى هنا والذهاب به إلى مستشفى المدينة، لم يكن هذا الأسمر الذي تجاوز سن الستين من عمره يتحدث إطلاقاً، كما أنه كان متيناً، مترهل الجسد، عليل القدمين وكان مقعداً على الكرسي المتحرك، ومع ساعات الصباح الأولى كان يأمر أحد المساجين أن يدفع كرسيه المتحرك إلى مكانه المخصص الذي عرف أنه له منذ زمن طويل مقابل باب الزنزانة ليترك وحيداً، كان يضع يده على خده، وعيناه طوال اليوم تنظران في فتحة الباب وكأنه ينتظر اللحظة التي ستأتي بنبأ الإفراج عنه.

حكم ست سنوات، ولم يذهب منها إلا سنتين فقط. كنت أستغرب، ما الذي يراه في نافذة باب الزنزانة هذه ويستوجب نظره الطويل إليها؟!، كان هذا تساؤلاتي الطفولي كلما شاهدته بتلك اللقطة الفلكلورية. يقول لي أحد السجناء بأن الأسمر الكبير عرف عنه قوة البنية فلقد كان يحمل السيارة الصغيرة من مقدمتها بكلتا يديه كما أنه كان زير نساء، ولم يكن يرضى بالوظائف التي تعرض عليه بشكل دائم، فلقد كان يعتبر الوظائف نظاماً مستحدثاً من العبودية القديمة بمسمى جديد، فالمدير هو نفسه ذلك الرجل الذي يشتري العبد من سوق النخاسة، ويأمر باستراحته وإجازته ومتى يأكل ومن ثم يرميه في الشارع عندما يكون عديم الفائدة، فلقد عرف

بدخوله بشكل مستمر إلى السجن، ما بين قضايا متنوعة لا حكر لها فلقد دخل في ثلاثة عشر قضية ما بين ضرب وتهديد وسطو واختلاس وتزوير، وبرغم كبره في السن فإن نزعته الإجرامية لم تكن تتزعزع من مكانتها فيه، لقد كانت وسيلة الوحيدة للتعبير عن رأيه في المجتمع، والجميع هنا يحترم مسيرته الإجرامية الباهرة، كما أن كثير من منتجي الأفلام تحدث معه ليكتب قصته التي ستتحول إلى فيلم يعرض في دور السينما، إلا أن أتت القضية الأخيرة وبرغم أنها خفائف كما يحلو للمساجين تسمية القضايا البسيطة إلا أنه بعد دخوله بأيام أتاه خبر وفاة زوجته، وهذا ما شكل صدمة تسببت في انهيار قواه الجسدية والعقلية، كما لو أنه جبل جليدي انهار من الاحتباس الحراري في فترة وجيزة، ورغم أنه قليل الحديث إلا أنه كان يبتسم لي بين الحين والآخر، وذات يوم ذهبت إليه لأسأله عن سبب بشاشته التي يرسلها لي، فقال:

– أنت ابن زعيم القرية على حدود ضاحية المدينة. أعرف أبيك جيداً، لقد كان يلفظ من أنفاسه تلك الروائح العنصرية عندما يراني، كنت أتمنى أن يرميه تعصبه في السجن هنا لألتقيه ولكني وجدتك هنا بدلاً عنه، ومن خلال تركيزي في تحركاتك وحديثك مع باقي المساجين بدا لي أنك شخص تختلف عن أبيك، فلقد عكس المثل بأن النار تخلف الرماد، وأنت عندي شعلة تحترق من أجل من حولها.

كنت سأغضب بسبب ما قاله عن أبي، إلا أنني تذكرت بأن هذا السجن بلا سقف للكلام، كما أنه عكس جزء مما تخلف البيئة الطبقة التي ظلت تعيشها مجتمعات المدينة المحرمة.

– اسمعني أيها الجديد، أنا خبير في القضايا، وليس هناك مسوغ قانوني لحكمك فترة طويلة، اسمعها مني سينادون باسمك عما قريب ويفرجوا عنك.

كانت تلك آخر الكلمات التي قالها لي قبل وفاته بيوم واحد، والتي أثرت كثيراً في منحنى صمودي في هذا السجن. لقد مات أحد مجرمي هذا الزمان الذي ظل يعبر عن غضبه بانتهاك ما يمكن انتهاكه، أنا متأكد أن كل تلك الغزارة في أفعاله الإجرامية ما هي إلا حالة من هياج المشاعر والغضب على هذه المدينة، وقرر أن أفضل طريقة للبقاء في لوحة شرف المدينة أن يكون مجرماً لا يشق له غبار، أعلم بأنها سذاجة فكرية ولكنه أقرب تحليل لحالته الفريدة، يبدو أني سأموت بعده من التفكير بغرابة السلوك البشري المعقد، فالكل هنا بما فيهم أنا غاضب بطريقته الخاصة.

كنت أتمنى أن أرى المستقبل قبل مماته بلحظات، لأخبره أن يلقى في السماء أختي التي دفنها أبي حية، ليقول لها:

– أختاه إياك أن تعودي إلى هنا، إنه الجحيم الذي نعاقب فيه بخطيئة أو بدونها. خطأك الجسيم أنك فتاة حلمت، وخطأك الذي لا يغتفر أنك حلمت هنا في هذه المدينة، إياك أن تعودي.

8

في يوما ما أطلقت المدينة البعيدة مبادرة تطوعية لزراعة الأشجار في الصحراء وطالبت المواطنين أن يغرس كل فرد منهم شجرة. كانت الفكرة جميلة ولكني كنت أراها صعبة التطبيق، وكان حكمي بفشل هذه المبادرة قائم على تجربتي في زراعة الأشجار حول محيط قصرنا عندما كنت في الشمال، والتي كانت مهمة شاقة أثقلت كاهلي الناعم وكاهل العاملين في القصر، فصعوبتها كانت تدور حول التربة الصحراوية ونوع الغرسات الشجرية بالإضافة إلى نوع الطقس الجاف والحار أو البارد جداً الذي لا يصمد الحديد فيها فكيف بالخشب الحي. والقادر على تطبيق هذه المبادرة هي الهيئات المؤسسية والتي تحتاج إلى خبرات الجيولوجيين وعلماء البيئة والمهندسين الزراعيين، بدلاً من إقحام المواطن في عمل لا يستطيع القيام به، ولأنني قرأت عن المبادرة ورفضتها داخل نفسي إلا أن صوتاً داخلياً ظل يدعوني للذهاب. عندها عللت لنفسي بالذهاب بغية رؤية شيء جديد، وضعت نقطة تجمع في منتصف المدينة لاستقطاب المهتمين من أنحاء البلاد، وبرغم أن المبادرة لا تعني أموالاً كثيرة ولا يوجد فيها مسرح للموضة والاستعراض فإن هذه المبادرة لم تنل استحسان الطبقة الأرستقراطية، وبحكم أنني أنتمي لها رحت أتردد في الذهاب، إلا أنني قررت في اللحظات الأخيرة أن أذهب برفقة صديقتي التي جاملتني في قراري. كان هنالك شيء يدفعني للمضي قدماً، فصوتي الداخلي لم يظهر منذ أن غادرنا الشمال من ستة أشهر إلا في هذه اللحظات، وكأن إرادة الحياة التي تنبعث منها مشاعرنا غير معروفة

المصدر تريد أن تلفت انتباهي لشيء ما، أو أن ترسم طريق جديد لي، كما أنني ارتديت قناع اللامبالاة، وهذا القناع يتميز بكون الناس ستنظر إليك كفارغ ولا تملك شيئاً وهذا جيد في هذه الأماكن الأقل شأناً. عندها وصلت كان المكان بسيطاً وغير مكلف، كل ما في الأمر جهاز بروجكتر ذو إضاءة أفقية وعمودية ومسرح بخلفية بيضاء لتسليط ضوء الجهاز عليه لعرض محتوى المبادرة، أو من يأتي محاضراً ويقدم الفكرة على خشبة المسرح، ومقاعد بيضاء بلاستيكية منتشرة وفي أقصى اليسار توجد طاولة طويلة وعليها مأكولات ومشروبات بسيطة للحاضرين، لم يحضر الكثير من الناس، وبلمح البصر تستطيع إحصاء الحاضرين وتميز القادم من أجل الاستفادة من غيره، وبحكم خلفيتي في هذا المجال الذي فشلت فيه رحت أشرح لصديقتي أنواع الأشجار ومدى تأقلمها إن زرعت في أرض المدينة البعيدة، إلا أن صديقتي لم تتغير وظلت تبحث عن الرجال الوسيمين وكأنها أشعة تحت البنفسجية تلتقط تحركات الأعضاء داخل الجسد، وبرغم انشغالها في نزواتها الشهوانية الا أنني واصلت الحديث، عندها قاطعت حديثي وقالت لي:

– انظري في وجهي ودون أن تلتفتي أو تشعريه بالأمر، هناك رجل يحدق بك.

قلت لها:

– دعيه وشأنه فلقد اعتدنا على تحديق الرجال لينتظروا منا حركة تسمح لهم بالقدوم والحديث إلينا،

– دعيه يأتي أريد أن أضحك عليه قليلاً بدلاً من النظر إلى هذه الأوعية المليئة بالأتربة والغرسات الشجرية،

لم أوافق ولكن قدوم صديقتي برفقتي جعلني مدينة لها بتنفيذ ما تقترحه، نظرت إليه فإذا هو شاب ذو هيئة وملامح بسيطة وزي تقليدي لم يلفتني في

شيء بحكم أني أرى كل يوم الأجمل والأوسم، كما أني رأيت فيه هيئة محافظي الشمال، فكنت أعد الثواني التي يأتي فيها ويغادر من أمامي ومن الذاكرة إلى الأبد، مر بجانبنا عدة مرات، ولم نبد أية حركة وكأنني في كل مرة يمر بنا أسمع ارتجاف قلبه، ثم أتى وحيانا محاولاً خلق موضوع، وقال:

- لاحظت أنك تشرحين عن الأشجار وأعجبني إلمامك ولكن كنت تتحدثين عن شجرة العتم أو ما يطلق عليها الزيتون البري وكان شرحك عنها غير صائب، فهذه الشجرة غير مناسبة للزراعة في صحراء هذه المدينة، ولأنها كبيرة وظليلة فيبدو أن الناس اعتقدوا بأنها ملائمة، ولكن الحقيقة عكس ذلك فهي شجرة لا تعيش إلا على سفوح الجبال وتلائم المناطق المعتدلة وليست الحارة جداً.

عندها ضحكت صديقتي لتبدأ السخرية من حديثه ولكنه رمقها بنظرة تحذيرية، وأكمل حديثه:

- يبدو أنك لست من سكان هذه المدينة؟

أجبته بالموافقة ولكن بطريقة متعالية لا تنم على الأريحية، ولكني سألته عن سبب هذه الملاحظة؟ فقال لي:

- طريقة حديثك وإن كانت باللهجة البيضاء الدارجة فإن فيها بعض المصطلحات الشمالية،

قلت له أنا من قلب الشمال، وبرغم أن ردي عليه لم يستحسن صديقتي التي اعتبرت سؤاله دخولاً في الخصوصية إلا أنني أكملت ردي بجواب ثم بسؤال لعلي أنهي الحديث معه:

- أنا من الهضبة العالية في قلب الشمال ومن المؤكد بأن استدلالك على هويتي من لهجتي الأصلية يجعلك تعرف شيئاً عن مسقط رأسي؟

وكل ما أردته من هذا السؤال أن أخذل معلوماته ويسكت ثم نغادر هذا المكان ولن أعود له من جديد، عندها أجابني بنعم التي قامت بدورها بإثارة أعصابي عندها رسم عقلي مخطط الانسحاب من هذه المحادثة بالاستئذان منه بشكل مفاجئ والمغادرة معللة بمشاغلنا الخاصة، لكنه أكمل بسرعة قبل أن أعتذر منه وأغادر وقال:

– أنا أعرف جدك العاشر الذي حرك الشمال برمته من أجل إرجاع حق مرأة عجوز استنجدت به من قطاع طرق سرقوا حلالها وأطاحوا بخيمتها. وكانت تلك الوقعة من أشهر ما عرف التاريخ القديم.

عندها ارتسمت في وجهي علامات الدهشة والاستغراب، فهذه القصة قد نسيها أهل الشمال أنفسهم ولم يعد يتذكرونها، كما أن كتب التاريخ المدرسية وحتى الجامعية لم تتكلم عن هذه الواقعة، وأكمل حديثه:

– إن لم يخب ظني فانتي حفيدتهم فعيناك العسلية قريبة لما وصفه المؤرخين لأجدادك، كما أن قوامك قوام فارسات القفز على الحواجز.

عندها أخذ يدي وقال:

– والدليل احمرار المنطقة هذه بين سبابة يدك و إبهامها فهذه المنطقة تتأثر بشد لجام الخيل كثيراً، وهذا دليل بأنك فارسة تمتطين الخيل كثيراً.

أذهلني إلمامه فلقد أيقظ فيّ ما لم أعتقد بأن هذه المدينة برمتها ستوقظه، وواصل حديثه:

– أنا أملك مخطوطة نادرة جداً وهي عبارة عن مراسلة بين جدي الذي قطن الجنوب وجدك في أقصى الشمال، وهذه المخطوطة يظهر لك فيها أخلاق الصحراء النبيلة.

عندها طالبته بضرورة أن يرسل لي المخطوطة ودونت رقمه على هاتفي،

ولم تمضِ ثوانٍ حتى أرسل لي ملف المخطوطة عندها شكرته بابتسامة وغادرنا المكان.

طوال الطريق كنت أفكر بمعرفته بهوايتي في الفروسية والتي لم أعد أمارسها منذ أن أتيت المدينة البعيدة وتذكرت أجدادي الذي أعاد هذا الغريب إحياء ذكرهم في الوقت الذي نستني إياهم مظاهر هذه المدينة. من هذا القادم من المجهول، وما الرسالة التي أراد مني القدر قراءتها ولم أستطع.

9

أطرق رأسي بشكل مائل كعادتي، وفي حركة تدل على استغراقي بالتفكير في أمر ما، كنت على جانبي الأيسر أستند إلى وسادتي الصلبة التي يتفجر القطن الرديء من جوانبها، وتتدلى يدي اليمنى من سريري في الطابق الثاني، فوضعيتي المترنحة لا تدل على أني أبالي بما أنا فيه ولكني في الجانب الآخر مهتم بأفكاري الخاصة، وفي محاولاتي الحثيثة إلى فهم السلوك البشري داخل هذا السجن ضيق المساحة، يبدو أني فقدت كثيراً من تهذيبي الأخلاقي، أعجبتني فكرة أن أكون سيئاً لأستطيع العيش في هذا المكان، أو يتقبل السجناء وجودي نداً لهم سوئهم.

في بداية قدومي كان بعض السجناء يطلقون علي لقب الصوفي، والصوفي تعني من لا يدخن أو يستخدم المخدرات، أو يعاقر مع الخمر. بلغت به الاستقامة مبلغاً لا يستهان به، وعلى الرغم بأن هذا شيء جيد إلا أن الصوفي في مكان كهذا يُعد منبوذاً، بحسب خبرة السجناء عندما كانوا طلقاء في الخارج و يعانقون الحرية فإن هذه الفئة ينتمي إليها المخبرون والمتلصصون أو الذين يقتاتون على أذية المجرمين عندما يقدمون للسلطات معلومات عنهم، وكأن المخبرين يرتدون القناع الصوفي هذا لإسقاط ما يمكن إسقاطه من هذه الفئة، فإن حاولت التعمق كثيراً في المجتمع الإجرامي ستجد أن بداخله نواح أكثر قوة من غيره، فالخطاب الإجرامي يبدو لك رجولياً وضد الخونة، كما أن تكاتف المجرمين مع بعضهم يستحق دراسة خاصة وعلمية،

علماً أن سقوطهم في الغالب مؤلم ولا نهوض بعده إلا أن الناس يتساقطون كأوراق الخريف على أي حال، وكلّ بخيبته الخاصة.

ازداد منسوب النسيان في وعاء عقلي فذاكرتي التي تتعلق بالأماكن فقدت خاصيتها في التقفي والتحليل. بيد أن الإنسان محكوم عليه في هذا الزمن أن يأكل من نفسه. كنا كالنترونات داخل نواة الذرة نتحرك داخلها بسرعة كبيرة، دون أن يتغير في شكلها الخارجي شيء، وهذا ما يفسر خصوبة الأحداث داخل السجن، فالسجناء يتصالحون ويتقاتلون وعدوك اليوم هو صديقك في الأمس وغداً، اتخذت شكلي الجديد وقررت أن أكون سيئاً بما فيه الكفاية، ويبدو أنني اخترت المشاعر الصحيحة في المكان المناسب، وبرغم أن عقلي يحيك خطة الصمود التي سأعتمد عليها طوال فترة وجودي إلا أنني استطعت أن أخفي ضمير الإنسان الذي طالما أظهرته بين الحين والآخر.

كان السجناء يغطون في نوم عميق وكنت أنا أنظر كعادتي في السقف العلوي أحاول أن أستجلب بقواي الخارقة ستار النوم ليهبط على عيني. وفجأة نظرت إلى السرير الثامن فإذا بالسجين الذي وصل منذ يومين يبكي، لم أتفاجأ فمن الطبيعي أن تكون لياليك الأولى هنا بهذا الشكل، ولن أتفاجأ لو حدث الأسوأ. أدرك أنني شاهدته وأنا بدوري عدت لأنظر إلى سقف الزنزانة، فلا تعنيني دموعه كما أنه لا يعنيني علمه بأنني شاهدتها.

ومع ساعات الظهيرة في اليوم التالي وعند وقفي على باب الغرفة الثالثة وضع وجهه الأسمر ذي الخدوش أسفل عينه اليمنى في وجهي وقال:

- إياك أن تروي ما شاهدته لأحد.

جديد لا يعلم بأن شكلي لم يعد يصف تطوراتي السيئة التي سلكتها مؤخراً، عندها قبضت على عنقه وثبته في حركة سريعة على الجدار، ورحت أكسر الكلمات كما يفعل أبناء الشوارع. قلت له:

– إياك أن تعيد تهديدي مرة أخرى فما أنت عليه لا يعنيني.

وأفلت قميصه، ورغم أني وضعت في عقلي خيار حق الرد بالنسبة له إما بالمثل أو أعنف مما فعلت إلا أنه لم يفعل شيئاً، بل أطبق فمه الواسع ذو الشفة السفلية المتدلية وعدل وضعية ردائه وغرب عن وجهي، ومن حسن الحظ لم يلاحظ أحد هذا الشجار الصغير الذي لم يستغرق سوى ثوانٍ بسيطة للغاية.

وفي مساء نفس اليوم أتى مرة أخرى وقال لي:

– اسمعني جيداً، أعتذر عن أسلوبي الفظ ولكن معرفة السجناء ببكائي يجعلني تحت طائلة التنمر طوال فترة سجني، وأنت تعلم ذلك جيداً، ولكني سأفتح لك قلبي ولعلي لا أندم ولكني بحاجة صديق في هذا السجن لأحدثه وأجد حلاً لمشكلتي. أنا أستحق ما يحدث لي، ولكن مشكلتي الحقيقة في زوجتي التي هجرتني بعد أن قبض علي بأيام قليلة، ورغم أني سرقت لأبدو لها أنني قادر على أن أكون بمستوى أهلها الأثرياء إلا أن ذلك لم يشفع لي عندها بأن تصبر وتؤازرني على محنتي. أتت عند أمي وقالت لها لقد رضيت بمستوى ابنك المادي ومعاقرته للخمر وطرده من عمله ولكني لن أرضى أن يقال لي زوجة السارق، أنت تعلمين طبيعة مجتمعاتنا الجنوبية التي تنتظر أن تعلق أي هالة سوداء لتبقى في الذاكرة والزمن. ووضعت مفتاح البيت في يد أمي وتركتها وحيدة.

كانت قصته ذات وقع كبير في قلبي. عدت ذلك الرجل الذي يحزن لحزن غيره، عندها أكمل حديثه بصوته الشاحب التي يبدو بأنه تشرب حزنه وقال:

– إنني أعشق تلك الحمقاء أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة، ويبدو أن تكلفة أن أقاتل من أجل إرضائها باهظة وها أنا أدفع ثمنها من عمري في هذا السجن.

واغرورقت عيناه بالدموع، عندها ألتفت يميناً وشمالاً لأضمن أن لا أحد يرانا وقلت له:

– خذ قطعة القماش يا غبي وامسح دموعك فلا المكان ولا الوقت ملائمان لهذه المشاعر، اذهب إلى سريرك وغداً نكمل حديثنا. هيا اغرب عن وجهي. لم أعد صديقاً لأحد، فقط مستمع جيد، وهذه هي الصفة الوحيدة التي أبقيت عليها مني، وأرجو ألا يطول اضطراري في هذا المكان على هذا التصنع.

وفي قفزة صعدت على سريري، وأخذت لحافي وغطيت وجهي لتتخذ هواجسي وهمومي وضعيه مناسبة لتتربع على صدري وعقلي. للأمانة لم أفكر في مشكلة السجين فأنا لست أخصائياً نفسياً وعمري لا يملك الرصيد الكافي من الخبرة لأجد لمشكلته الحل، كما أن لدي ما يكفي والذي لا يجعلني أفكر بشيء لا يتعلق بنفسي وبالأخص في مثل هذا المكان.

الشيء بالشيء يذكر، فما الأخبار يا هند؟ وهل لا زلت تذكرين ذلك التائه الذي قبضت على قلبه وأرسلته إلى غيابات الجب وظلت أطيافك تلتقط أنفاسه في كل مرة يتذكرك فيها؟ أعلم أنني جبان، كان جبني هو حكمتي وشريعتي الحياتية ودستوري الخالد الذي أستمد منه طريقي في مواجهتك، فقدماي ويداي ظلت ترتجف طوال سنة كاملة عندما أنوي الذهاب إليك أو أن أراسلك من هاتفي، لقد واجهة الحياة بضراوة كنت أنهض منها خاسراً في كل مرة، مع ذلك كنت أنهض ولكن مواجهتك كانت تقضي علي لو لمرة واحد فقط دفعتني للخلف.

بدأ على لساني ذلك الطعم المر الذي تفرزه مشاعري ويلوث مذاقي للأشياء والتعاطي معها، عندها شعرت بالضياع والقلق عندما انتابتني هذه المعضلة الوجودية الأخرى وليس موضوع جانبي عارض، نعم يا هند

وجودك هو التفسير الوحيد لهذه الحياة وغيره هرطقات فلاسفة وأهواء مفكرين أضاعوا عقولهم بلا طائل.

ولكن كيف لم يخطر على بالي بأن هنداً علمت بسجني كل هذه المدة، لا هذا ما لا أريده، أخذ قلبي ينبض بقوة، فما هي ردة فعلها إن عرفت أين أنا الآن؟! ستقول في نفسها كما قالت زوجة السجين لأمه: «هل تريدين أن يقول عني الناس أنني زوجة سارق؟»، هند حتماً ستقولها بطريقة هادئة فأنا لا أعنيها بالشكل الذي كانت عليه زوجة السجين، فمن المؤكد أنها ستندب حظها العاثر أن أحد معارفها سجين، عندها ستضيع الفوارق بينها وبين مدينتي المحرمة في مشاعرهم اتجاهي، لا يهم ما تهمتي وماذا فعلت فيكفي أن يعرفك الناس بأنك سجين وهذا وحده يطرح سمعتك في الأرض، كل ما أعتقد بأني اقتربت منها أجد نفسي ابتعد مسافات ضوئية، لا وقت لدي لهذه الأفكار ولكني أخذت أضع مبررات لنفسي وخاطبت نفسي بصوت داخلي عالٍ: «هي لم تُعرك انتباها طوال سنة فكيف خلال بضعة شهور قضيتها في السجن».

ولكن هذا المبرر لم يهدئ غضبي وعادت الانتفاضات تشتعل في صدري مرة أخرى، لمتُ نفسي على الذهاب إلى محفل التشجير التافه في المدينة البعيدة الذي ألتقيتها فيه أول مرة، فمنذ متى قد كان تعلقي بالطبيعة بذلك الشكل؟!، الجنوب ممتلئ بالأشجار التي لم آبه لها ولا بضرورة وجودها في حياتنا في الأصل، وهروبي من واقعي ومن نفسي جعلني أذهب لتلك الأماكن التي أعادت تقزيمي لنفسي وأضاعت مني جدوى التعافي من سوداويتي الحانقة والتي تخنقني في هذا السجن الكئيب.

10

أسدل الصبح ستاره الفضفاض الذي يوبخ قضبان السجن لم يتغير معه شيء منذ لحظاتي الأولى في هذا المكان، فجسدي أصبح كالترس الصغير داخل ماكينة ضخمة اعتادت على عمل الأشياء وفق روتين ثابت، حتى أن أفكاري التي ظلت تلاحقني ملّت مني وذهبت ليحل النسيان محلها. ورغم أنه لم يمض على قدومي إلا بضعة أشهر إلا أنني فقدت ملامح المدينة المحرمة، فمنذ أيامي الأولى في السجن قلت للسجان إياك أن تسمح أن يزورني أحد من أهلي أو أقاربي، أو من يدعون بأنهم أحبابي، فرؤية خيبتي في وجوههم سيعذبني ويزيد من تهتك عزمي الذي بدأت أفقده، ولم أعد في حاجة لكلمات الصمود ولا طبطبة الأكتاف فلم يعد وجودي إلا محاولة لانتشال جسدي من سوداوية الحياة.

ركض أحد السجناء المعمرين بلهفة نحوي، وكانت هذه وظيفته أن يستدعي السجناء لنداءات وكأنه ساعي البريد الذي يوصل الرسائل دون أن يعرف ما فيها:

- قم أيها الجديد، العسكري ينادي باسمك.

- ماذا يريد؟

- لا أعلم ولكن في يده ورقة ومحبرة الختم.

نهضت من سريري الذي ملني، فإذا بي أمام نفس العسكري الذي قيدني بإذلال إلى هذا المكان مبتسماً.

– أسمع يا هذا. استعد، لقد أتى أمر بالعفو عنك والاكتفاء بالشهور القليلة التي سجنت فيها.

يتحدث وكأنه صاحب الفضل في خروجي، أخذ ورقة إطلاق سراحي وأمسك إصبعي الإبهام وصبغها باللون الأزرق ثم وضعها تحت خانة الموافقة، وقال لي عند الظهيرة سيتم إطلاق سراحك من السجن فأرجوا منك أن تجهز أغراضك للخروج.

لن أخرج إلا عندما أصفي حساباتي الخاصة، وأولها ذلك السجين الذي مزق الورقة، فلا تعتقد أن خروجي ينسيني تلقينك الدرس الذي تستحقه، ولم أقدم على هذا العمل إلا بعد دراسة وتحري خاصين، ذهبت للغرفة ورفعت ساق سريري وأخرجت من تحته قطعة من القماش يوجد في داخلها كميات من الحشيش، ثم ذهبت إلى غرفة الضحية ووضعتها بخفة تحت رأسه الأصلع النائم و المزدحم بالجروح والآثار التي تشبه الكتابة الثمودية في الصخور، ما أجمل أن تعيد الخسة لأهلها في هذا المكان، إنه شعور الانتصار في هذا السجن، عندها ذهبت لسريري الشيء الوحيد الذي أحببته في هذا المكان، وقفت دقيقة حداد وكأن سريري أشبه بجثمان نجدي قتل في معركة الأبدية، وودت لو كنت أملك بندقية أصوبها عالياً وأطلق الرصاصة لهذه القطعة الحديدة التي تحملتني طوال فترة وجودي، فلم يسبق لشيء في هذا الكوكب أن تحملني كما تحملني هذا السرير، حتى أعظم أسراري كقطعة القماش التي تحمل الحشيش أحتفظ بها لتعينني على الثأر، وعند تفكيري بما سأخذ معي كان قراري بأني لن أحمل شيء من هذا الزنزانة، سواء أوراقي التي نثرت فيها دموعي وشوقي وخيباتي وكل ما كتبته عن هند والحياة.

حانت الظهيرة وفتح لي السجان باب السجن، وكأني في تلك اللحظة ملاكم وقف على خشبة الحلبة ليعاد تقديمه للجماهير والمشاهدين بعد أن

صقلتني هذه القضبان الحديدية وجعلت خطاي ثابتة لا تتزحزح عندما أهبط بها على الأرض، ولكن في المقابل كان هنالك شعور بعدم جدوى خروجي من هذا السجن، فلم أكن مستعداً بعد لمواجهة المدينة المحرمة ولكنه قدري، سجنت بلا موعد وأطلق سراحي بلا سابق إنذار.

ذهبت للسجان وقلت له:

– سأقدم لك معلومة ستنال عليها ترقية وثقة مدير السجن إن أحببت.

– وما هذه المعلومة؟

– أعلم أن يخبأ الحشيش في السجن، ولكن شرطي أن أخبرك بعد أن تخرجني من البوابة الخارجية.

عندها نظر لي السجان وكأني قدمت له هدية عيد ميلاد، وعند باب الخروج همست في أذنه وأدليت له بمكانها وباسم صاحبها.

11

كنت، أعيش من أجل سعادة المحيط حولي، ورددت ذلك من جدتي، كان يهمني أن أطل على موائد طعامهم لأضيف لها ما ينقصهم، وأتحول لألة تبعث التحفيز في نفوسهم ولا تتوقف، كنت أقف بجانبهم على ما يوجهونه، أضفي لوجودهم في حياتي أكبر قدر من الكمال الممكن، كنت أحاول ألا تتأثر حياتنا من غير أبي، الذي ظل يؤجل فكرة عودتنا وفكرة قدومه إلينا، في المقابل تحولت من إنسانة طموحة تضع قدمها على ركاب الخيل بكل توازن وتمضي مسرعة إلى حيث أرادت إلى صندوق أسود تضع فيه أسرارها وأسرار من حولها. أنه لأمر محزن أن لا نكون ما أردنا، وأن نكون ما يريده الناس منا، فأنا هنا كالبنائين الذي يشيدون ما ليس لهم، نساعد أن يكبر الناس ويعيشوا بسرور بينما نسياننا لأنفسنا يصبح عقوبة علينا، ولعل الحظ ساعدني في تدارك ذلك قبل فوات الأوان. قررت أن أكتفي بهذا القدر من المساعدة المبالغ بها، أعلم بأني سأعود إلى ما أنا عليه ولكن يكفيني شرف المحاولة أن أكون أنا وفقط.

عدت لأزور الإسطبلات في المدينة البعيدة، وكانت مشاهدتها مبهجة، عندها قلت في نفسي ها أنا هنا وأنتمي لهذه الأماكن، كنت أتذكر في طفولتي كيف قررت ذات يوم ألا أخذل الخيل والفروسية وأني لن أتركها يوماً، وبدون مقدمات عرضت نفسي على أفضل مدرب في المدينة ليدربني، زمجر وأخذ ينظر لي وقال ما علاقتك بهذه الرياضة؟! فيما يبدو لي أنك فتاة ذات

حسن وهذا العمل شاق عليك، عندها انفعلت وأوضحت له بأن علاقتي بهذه الرياضة هي علاقة وجود وتاريخ وأشياء لا يمكن لمدرب في الإسطبل أن يفهمها، وبرغم بأن أسلوبي كان مشحوناً وحاداً إلا أنه نظر إلي وقال اسمعي أيتها الفتاة أنا لست معلم أساسيات ففي الجهة المقابلة اسطبل يقبل المبتدئين، وفي أثناء استعراضه لشروطه أعطيته ظهري وسحبت لجام الخيل من أحد العمالة ووضعت قدمي على الركاب ثم أخذت وضعيتي على سرج الخيل، بينما صمت المعلم في ذهول ينظر إلي، أطلقت الخيل حول الساحة، رهبة الحواجز ما زالت في قلبي، وعدت نفسي أن أقفز من فوقها بين جموع الناس و كان هذا حلم طفولتي، وافق علي ولم يتردد، وكان مهارته ومسيرته في هذه الرياضة سبباً في اختياري له، فلقد ذهل بموهبتي في الفروسية، وضع شروطاً وجعل عدم التقييد بها مصدر تهديد لعلاقتي التدريبية، منها زمن الحضور وتجنب بعض الأطعمة.

لقد أعاد صياغة الكثير من المفاهيم التي لم أكن أعرفها عن الخيل، وهنا عدت هند التي أعرفها في نفسي فلقد خطفت حياتي من أيدي المحيط حولي وسلمتها نفسي، ولكن أجزاء مني لم تنس محيطي كثيراً، فلقد اختفيت عن الأنظار وبت أشبه حيوان الخلد الذي يحفر مسالكه في الأرض ويظهر متى أراد الظهور للحياة والعامة يعود ليختفي مرة أخرى، بدأت فكرت الارتباط بالأشياء تختفي تدريجياً، وزاد ارتباطي بما أهواه.

وفرت لنفسي بيئة رائعة، ووضعت أمام عيني السباق العالمي للفروسية الذي يقام سنوياً في المدينة البعيدة، وطوال ستة أشهر كافحت لتكون مشاركتي الأولى مبهرة بالشكل الذي يجعل أجدادي يحفرون الأرض صعوداً ليخرجوا من قبورهم، ويفيقوا من غفوتهم الأبدية مبتهجين لأن فتاة من صلبهم أعادت اسم أجدادها إلى الشاشات والإعلام وذاكرة البشر.

كانت مشاعري لا يفوقها وصف وأنا أتخيل مشهدهم يطلون علي من السماء ويحفزوني بكلماتهم البدوية التي يستمدونها من قاحلة الصحاري، ويخاطبون الطبيعة بها.

وطوال مشوار تماريني سقطت ما يقارب سبع مرات على أماكن متفرقة من جسدي، وكل وقعة عن ظهر الخيل كانت ستكتب نهايتي، إلا أنني أشعر بأن أرواح أجدادي تخفف من وقعتي، وتجعلني أنهض مرة أخرى، ولكني تمسكت بقول الحكماء، الضربة التي لا تقتلك تقويك. الفروسية مدرسة للحياة، تعلمك النهوض السريع بعد كل سقطة، يا لها من فلسفة يعرف الكثيرون التفوه بها وقليل جداً من يعرف كيف يطبقها، ولكن مع الفروسية تعتبر قاعدة يجب عليك أن تطبقها، وتتحامل على كل آلامك من أجل ذلك النهوض، نعم إنه أمر شاق على نفسك وبدنك ولكني يجب أن تقوم بذلك، من تلك السقطات كانت عند محاولتي الأولى للقفز فوق الحاجز القصير الذي يتوسط الساحة بشكل عرضي، فلم أكن مهيئة للمحاولة والحصان لم يكن في حالة جيدة، فصعوبة التمرين جعلته لا يستجيب لقرارتي، وفي لحظة مباغته وقبل وصولي للحاجز سقطت على كتفي الأيمن على الأرض، بعد أن ظل الحصان يتحرك بطريقة غير متوازنة محاولاً إسقاطي عن ظهره، وبرغم من قوة السقطة وإحساسي بالألم والرضوض في فخذي وقدمي اليسرى إلا أنني عدت لركوب الخيل بسرعة لكي لا تشعر الخيل بأنها تغلبت علي، وكأنني أشعره بأنني قوية بما يكفي لاعتلاء الظروف فكيف بظهرك، ومن تلك السقطة توثقت علاقتي بالحصان كثيراً، حتى أصبح عربون عبوري لأي حواجز قادمة على ظهره، عندها ذهبت لبيت الحصان في الإسطبل لألقي نظرتي عليه وأطمئن بأنه لا زال يعرفني وأنني سرعان ما أبدلت سوء مزاجه في ذلك اليوم، كسرعة تجاوزي للإصابة في أقل من أسبوعين، فنظام

نومي المبكر وتمارين الاستشفاء التي كنت أقوم بها دائماً مع كل صباح كانت تساعدني على التعافي والنهوض مرة أخرى.

وقبل منافسات السباق العالمي للفروسية بأسبوع وبعد أن تمت الموافقة من لجنة السباقات على اسمي كمشاركة وأثناء ذهابي إلى الإسطبل بفرحة كبيرة، تلقيت مكالمة من أبي وكان صوته كان مختلفاً، وكأن الذي يحدثني شخص لم أسمع صوته من قبل، وكانت الصدمة التي لم أتوقعها، لحقتني لعنة الشمال إلى هنا، طلب أبي ألا أشارك في السباقات العالمية القادمة متعللاً بأن مشكلته مع الشماليين لم تنته ولا يبدو أنها ستنتهي في الوقت القريب، وإنهم كمحافظين حتماً سيستغلونني كابنته للإضرار به عندما أشارك ويرتفع اسمي واسمه عالياً. أبي لم يرفض مشاركتي ولكن طلب تأجيل هذه الفكرة إلى أن تأتي الفرصة المناسبة التي لم أعد أثق بأنها ستأتي بعد هذه المرة، عندها وقفت بسيارتي على جانب الطريق وبكيت بحرقة لساعات طويلة، فأنا أحترم أبي كثيراً ولن أرفض له طلب. ظل أبي طوال المكالمة يعتذر بعد كل عبارة، أعلم أنه يشعر بالخيبة التي أشعر بها، ولكن تربيتي لم تكن لتجعلني يوماً أسهم في أن يستخدمني أحد ضد عائلتي وبالأخص أبي.

12

عدت لسجيتي عندما قدمت للمدينة وأصبحت أتشبث بالعلاقات التي كنت أرى أنها تشبه النبيذ بطعمه المرّ و تأثيره على نسيان خيباتي. كان الأمر مجدٍ مع منهم مثل حالتي، عدت لصديقاتي اللواتي يفضلن المال على أي صفة رجولية أخرى في علاقاتهم العابرة، فبرغم أن لحظاتهم الطائشة تبدو سعيدة إلا أنها غالباً ما تنتهي بالإذلال، فالرجل في هذه المدينة يبحث عن متعة مؤقتة وما أن يشعر بأن هذه المتعة اقتربت نحو اتجاه ارتباطه بالمسؤولية، سرعان ما يتخلى عنها ولو دفعه الأمر إلى استخدام أرذل الطرق دون مراعاة مشاعر الآخر.

بحثت في مخزون ذاكرتي وأرشيف عقلي الأشبه بسلة رسائل غير مهمة في بريدي الإلكتروني، وتذكرت ذلك الشاب الذي التقيته في مؤتمر التشجير، لقد راسلني لوقت طويل بينما كنت اعتبر رسائله روتينية لا غاية منها لا ذوق لا طعم ولا رائحة، ورغم أنه تميز بحدة ذكائه ومعلوماته التاريخية التي أذهلتني عند مقابلته، إلا أنني كنت أرى بأنه أقل مني بكثير، أعلم بأني لست بهذه الحدة تجاه الأشخاص ولكني بالفعل شعرت بذلك التفاوت، في المقابل ما الذي يجعلني أفكر به، فالرجل الواثق هو من يصنع وجوده في حياة الفتاة وهذا ما لم يفعله هذا الغريب، سأعود لأراسله لعل لديه ما يعجبني وأستطيع التسلي به لفترة معينة، ويكفي بأن يصبح كالراديو وأنا مستمعة أغير الموجة كما يحلو لي. فتحت هاتفي النقال على محادثتي معه، الأمر غريب. كانت آخر

رسالة منذ قبل ثلاثة أشهر، سلسلة من رسائله خلف بعضها دون رد مني، إنها اللامبالاة التي أستخدمها ضد هذا الرجل، ضحكت في داخلي. فمن الطبيعي أن بعد سنة من دون رد واحد ستجعله يكف عن مراسلتي، هو لم يكن من أوائل خياراتي ولا حتى نهايتها بل ظل هنالك في الهامش حيث وضعته. قررت أن أبدأ المحادثة، كتبت أهلاً ثم إيموجي مبتسم، وعبارة أين أنت؟ كنت أتساءل عن غيابه في أعلى الرسالة وكأنني مهتمة وبعثت بها لعله يجيب. عدت لأوزع الضحكات على صديقاتي، مر يوم ثم يومان وزاد تعلقي بشاشة الهاتف والغريب لم يرد على رسالتي، قررت أن أبحث عن رقمه الجديد إن وجد، سأتعلل بطلب مخطوطات تاريخية أخرى وأعلم بأن سيتلهف لخدمتي، فلا أزال متشبثة بفوقيتي عليه، مرت الأيام والأسابيع والأشهر، وأصبح الغريب يشكل لغزاً في مخيلتي، بحث أصدقائي الذين يعملون في شركة الهاتف عن أرقامه لكنهم لم يجدوا شيء سوى رقمه الوحيد الذي بحوزتي، ثم بحثت عن أرقام أقاربه إلى أن وجدت أحدهم الذي أخبرني بأنه سجين، وعند سؤالي عن سبب سجنه تعلل بأنه لا يعرف شيئاً، وهذا ما أثار استغرابي فلقد كانت طريقته وهو يحدثني عنه توحي بشيء لم أفهمه، شيء من التفكك والإهمال، ما هذه العائلة؟! فلا يبدو بأن سجن قريبه يعني له الكثير.

رغم أن هذا الغريب يوجد في مكان مشبوه ومن الخطأ أن أسأل عنه، لكن ثمة أشياء يكتنفها الغموض. قررت أن أعرف سر هذا الإنسان، وبعد تواصلي مع أحد المتنفذين الذي كان عشيق إحدى صديقاتي، قال لي بأن قضيته حساسة وتتعلق بالرأي العام والإخلال بالنظام المجتمعي، وأن هناك عريضة قدمها شيخ قبلي وفيها ألاف التوقيعات من أهالي المدن الجنوبية التي تطالب السلطات فيها بإيقاع أقصى العقوبة عليه، وعند بحثي ظهر بأن الأمر

يتعلق بما كتبه عن أخته التي يقال أن والده قتلها بسبب هروبها مع عشيقها، وأنه نصرها ووقف مع قضيتها منتقداً الظواهر المجتمعية التي كان لها نصيبها في هذه القضية، ذهلت بالتقارب الرجعي بين الشمال والجنوب وكيف أنهم لم يشاركوا إلا في نظرتهم للمرأة، ففي كل رجعية هناك رجل يناضل من أجل شيء ما، أحببت هذا الغريب من حيث المبدأ والظروف، ولكن يجب أن أوقف البحث عنه، فمن أجل المجتمع تنازلت عن سباق الفروسية، ومن المؤكد بأني سأتنازل عن علاقتي بهذا الرجل من أجل المجتمع كذلك، وبحركات بسيطة من أصبعي وأنا أحمل هاتفي النقال حجبت رقمة وحذفته نهائياً، يكفي أن هذا الغريب تحول إلى قصة عرفتها وأعجبت بها ولكني لن أعيشها، إلى هذا الحد لا يعنيني الباقي.

13

لا أعلم لماذا تخيلتها تقف خلف الباب تنتظرني والشوق يسدد طعناته الأليمة في صدرها الطعنة تلو الطعنة، وعند ترقبها تتحول ثوانيها إلى سنين عجاف، ودقات قلبها تصلني كأنها طبول الحرب. أرى عيونها الواسعة تدمع بل تتكدس من الفرحة، إنها لحظتي الموعودة، بهيئتها الأخيرة حيث كان لقائنا الأول، مشوار مئة وخمسين يوماً ينتهي بلقاء ملائكي، وكأنني أراها تمد ذراعيها الناعمة ذات البريق الأبيض لتحضنني داخل معطفها الحريري وتهرب بي بعيداً إلى أبعد نقطة في الأفق، حتماً ستتنازل عن الفروق الطبقية والمسافة الرهيبة بين المدينة البعيدة والمحرمة، ستطرح كل الفروق البشرية أرضاً وتضعني نصب عينها، حيث ذلك الغريق الذي لم تجعله قوة الأمواج يلتقط أنفاسه وينقذ نفسه، إنني في أمس الحاجة ليدها لترفعني عالياً وتنتشلني، إنه الإنقاذ من الشفقة التي تنتظرني ومن اليأس، ومن ظنون الناس، ومن المجهول الأبدي.

سار بي السجان المسرور وكأنه تحول إلى حارس شخصي لي لمجرد أن وشيت بسجين له، فمضرّة السجين وإن كان يستحق ذلك هي منفعة للسجان حيث سينظر مدير السجن إليه كسجان ذكي يجيد إدارة الأمور في هذا المكان المعقد، عندها سينال تلك الحظوة التي طالما انتظرها وانتظر المميزات التي ستأتي معها، إنها حيرة الوجود بين السجان والسجين.

فتح لي الباب الأول ثم وقعت وأنا مكبل بيدي اليمنى على ورقة

خروجي النهائية، ثم فتح صندوق الأمانات وأخرج ملابسي القديمة وبقع الزيت لازالت تملئ كمي الأيسر وساعتي الغالية التي طالما تحركت عقاربها من أجلي. دخلت غرفة الملابس أستبدل وأرمي ملابس السجن التي أرتديها. وجدت في تلك الغرفة مرآة طولية مكسورة، من المؤكد أن سجيناً قبلي هشمها حتى أن وجهي بدا عليها متصدعاً غير متلائم الملامح، ورغم أنني فرح ومتلهف وسريع الحركة لكنني لم أركز على وجهي كثيراً، فقبل أن أدخل السجن كنت أقول إن ما تفكر به ينعكس على ملامح وجهك، ولكن وأنا في طريقي للخروج قلت إن قلبي وشوقي لهند هو ما سينعكس على ملامحي السعيدة أمامها، عندها سأصبح لوهلة واحدة الرجل الوحيد في العالم الجميل الذي ملأ يوماً عيني فتاة وقلبها.

أسرع أيها الجديد، لا وقت لدي، فالفريسة التي أخبرتني عنها تنتظرني، سأراقبها لأيام، لا لا بل سأقبض عليه الآن بالجرم المشهود، وسأطلب من السجانين زملائي أن يكونوا حاضرين ليشهدوا هذا اليوم الذي سأتحول فيه من حارس أبواب يلبي طلبات السجناء إلى قائد فرقتي، لن أتأخر إنها أشياء لا تتكرر كثيراً في هذا المكان اللعين ومع هؤلاء المساجين. عندها نظرت إليه وتذكرت نظراته التي رمقني بها عند دخولي أول مرة وكانت تصرفاته تهينني، أما الآن فشاهد كيف تغير الحال. إن الدخول دائماً في المتاعب لا يشبه الخروج منها إطلاقاً، ولا حتى تعامل الناس من حولك معها. فتح لي الباب وكأني ملك متوج على العرش وقال لي:

– اذهب إنها الحرية، وإياك أن تعود إلى هذا المكان مرة أخرى. فلن أرحمك، كما أن الذي وشيت به حتماً سيقتلك ويقطعك إرباً إن أبصرك.

غيّر السّجان من طبقة صوته حيث جعلها حانية أكثر وكأنه تحول إلى صديقي:

– هيا اذهب وتذكر دائماً أنك عندما سجنت لم تتوقف الحياة من أجلك، ولن تتوقف لأجل غيرك، ومن اعتبرتهم أصدقاء – إن وجدوا – لم ولن يأبهوا بك.

أخرجني وسحب باب السجن خلفي وزمجره بالمغاليق السوداء.

ما هذا الخروج؟! إنه فخ نصبه لي القدر، الخروج من هنا أشبه بحياء الفتيات اللواتي تتصنعنه لينصبن شراكهن ومن ثم يقع الشاب في المصيدة، إن كانت هذه الحرية فإنها الفتنة التي لعن الله من أيقظها، فما الحرية في هذه المدينة المحرمة إلا سجن كبير بلا قضبان حديدية ولا حدود عينية ولا تخيلية، إنها القاضي وسوط الجلاد، والعذاب الخالد الذي يلاحقك حتى بعد مماتك.

يا للخيبة.. طال وقوفي بعد أن أوصدت الباب خلفي، لم يكن أحد يعلم بخروجي، ولا أظن أن أحداً يكترث ولا حتى ملاكي السماوي هند.

واصل هبوط الأمل لدي لأدنى مستوياته، وصل إلى نقطته الحرجة لتستبدل بدلاً عنها تلك الشقوق التي تملأ قلبي عندما أتذكرها، فكل الفواتير الباهظة دفعتها منذ عرفت نفسي وها أنا أواصل دفعها، ما قيمة أن تنتظر وتنتظر وأنت تعلم بأن لا أحد سيأتي من أجلك، إنه الفراغ الذي عهدته، نظرت بشكل أفقي ولم أكن أصدق أن السماء لم تعاقب هذه المدينة على ما فعلت. إنه هدوء الحياة الملوث كما تركته، إنها وجوه المارة التي تتقلب أقنعتها في الدقيقة الواحدة، كما أنها تلك الجسور الآيلة للسقوط التي تلصق الضفف المتربة ببعضها، وأبنيتها الطينية الأزلية البائدة التي ترهلت جدرانها.

مضيت لعلي أرى ما يلجم غضبي من هذه المدينة. كنت أسير بلا وجهة. لم يتعرف علي أحد، ملابسي القديمة منحتني طابع غريباً ولحيتي الكثة الغوغائية التي تجاوزت قبضة يدي ولم أشذبها منها منذ دخولي، ووجهي

الشاحب الذي ثقبه عفن تلك الوسادة التي بقيت أتشبث بها طوال وقتي في السجن، وكل المؤشرات تدل على أنني مجنون أضاع وسيلة كسبه المضمونة. إن هذا الطريق الذي أمضي فيه أشبه بفيلم ذكرياتي فكل الطرق انحناءات لا استقامة فيها، بقيت أسير إلى أن وصلت إلى الجبل العالي ذو الصخور الجرانيت النارية السوداء، والتي يقال بأنه كان بركاناً خمدت نيرانه ولم تعد تسيل حممه البركانية منذ آلاف السنين، صعدت الجبل عبر مسلكه المرصوف بالحجارة الذي بناه أجدادنا ليصعدوه كل ما أتت الأمراض والأوبئة و الحروب، اختبئوا مما نصبته لهم الطبيعة الأم، وبرغم أن الصعود شاق إلا أنني أدركت منذ زمن بعيد بأن الصمود في القمة أصعب، فلم أعر ألم قدمي أي اهتمام رغم ازدياده طوال تقدم الدرب بي نحو القمة، وصلت قمة الجبل، عندها تساءلت ببراءة كم من شخص امتلأ جسده بالعدمية صعد إلى هنا وقرر ما سأفعله، قلبي كان آخر الأشياء التي كنت أنتظر أن ينقذني،، نظرت إلى المدينة المحرمة ورفعت يدي عالياً على مستوى كتفي، وقررت أن ألقي بنفسي من أعلى جبالها كطائر صغير قرر لأول مرة أن يطير. وعندما كنت أهوي من أعلى الجبل إلى الأسفل بتلك السرعة التي شاهدتها فيها شريط الذكريات من قبل ولادتي، بقيت أقول بصوتي الأخير لم تشاهدوني إنساناً وأنا أتنفس بينكم ولكن حتماً ستشاهدونني الآن كفكرة عدمية تلاحقكم إلى أبد الآبدين، وأنا؟! ما أنا إلا فكرة ستبقى وحتماً ستنساكم الذاكرة.

النهـــــاية